
الكتاب الماسي
قصص عربية
هذا النوع
من النساء
بقلم
أمين يوسف غراب

الكتاب الماسي

هذا النوع من النساء

بقلم
أنيس يوسف عزاب

غـدا ... سأحبك

كان مثلى ، ومثلك ، ومثل الناس جميعـــا • رجل له عقل ، وله قلب • وله احساس وشعور ، وكان ودودا محبا للخير وللناس وللدنيا • وكان أيضا ضحوكا مبتسما دائما لأنه لا يريد لأحد أن يراه الا كذلك • كانت هـــذه هى شخصيته الظاهرة التى يعرفها الناس • أما شخصيته الاخرى ، شخصيته الحقيقية اليائسة التى يعرفها هو • ويعيش فيها منذ أن وقف على قدميه ، وخبر الدنيا وعرف الحياة ، وتشوف قلبه الى مفاتنها • كانت تختلف اختلافا كبيرا ، فهو يعيش بحواسه المنظورة أمام الناس • يرى ويفكر ويتحدث • ويضحك ولا تفارق الابتسامة ثغره اذا وقعت عليه عين ، وهو يعيش بحواسه غير المنظورة ، لنفسه ، عيشة شقية يائسة ترهقه وتضنيه ، وتعذب قلبه عذابا كبيرا • لدرجة أنه كان يئن فى الليل ويتوجع فى النهار ، كانت احساساته الخبيثة تشبه السياط التى تنهال عليه وكان يشعر بهذا شعورا حقيقيا كلما تعمق فى ذاتيته وخلا الى نفسه وابتعد عن الناس ، فلا يملك غير الألم والوحشة واليأس والقنوط من كل شىء • انه يشعر شعورا صادقا بأنه يفقد شيئا ، شيئا هو الحياة ، وهو الدنيا ، وهو العمر الذى يعيشه ولكن ما هذا الشىء ؟ ما كنهه ؟ ما لونه ؟ ، انه لا يعرفه ومع ذلك فانه كلما ازداد ايمانه بأنه يجهله جد فى البحث عنه ، وكلما أخفق فى العثور عليه بكى ، وجلس يسأل نفسه متى سيجده ، متى سيظفر به ، انه يبحث عنه منذ عشرات السنين ، منذ أن عرف نفسه وعرف الدنيـا وعرف الحياة ، وكان كلما تسرب اليه اليأس أحس برغبـــة فى البكاء ، وكثيرا ماكان يبكى ! وكثيرا أيضا ماكان يسأل نفسه وهو يبكى لماذا يبكى ؟ هل تنقصه الصحة ؟ • هل ينقصه المال ؟ • هل ينقصه المجد ؟ • هل تنقصه المرأة ؟ • انه يملك من هذا كله الكثير ، يملك الصحة التى يتمتع بهـا كيفما شاء • وأعطى المال الذى فاض وكثر حتى كاد يفقد قيمته كأى شىء يزيد على حاجته ، وعرف من النساء الجميلات وغير الجميلات كثرة لاعدد

لها . فماذا يريد اذن ، وما الحياة ان لم تكن الصحة ، وما الجاه ان لم يكن المال والمنصب وما الدنيا ان لم تكن المـــرأة ، ولكن هل حقيقة هذه هي الحياة ، وهذه هي الدنيا وهذا هو العمر ؟؟ لا ... ان الحياة شيء آخر شيء اسمه القلب . الدنيا هي القلب . والعمر هو القلب ، والهناء هـــو القلب وماذا يريد القلب ؟ يريد الشيء الذي يفتقـــده . وما الشيء الذي يفتقده ؟ . انه لا يدري .

كانت هذه هي حياته الثانية التي لا يعرفها الناس . حياته الشقية التي تضنيه وتعذبه . حتى جعلته يعيش كمجنون يسير في الطرقات على غـير هدى مطرقا ينظر الى مكان قدميه من الأرض ويتحسسهـا بعينيه وكأنه يبحث في طينها وترابها عن ذلك الشيء الذي فقد منه . وكما أن الشمس كانت منذ عشرات السنين تشرق من المشرق كما تشرق اليوم تماما وتظل سائرة في دورتها حتى يلحق بها الملل . فتتوارى آخر النهار متعبة مكدودة جريح القلب وتغرب كما تغرب اليوم تماما .. ظل هو كذلك أيضا عشرات السنين . فمنذ أن وقف على قدميه وعرف صحوة العمر ، ظل يستيقظ مبكرا كما تستيقظ الشمس تماما ، ويسير مطرقا بين الناس يبحث عن الشيء الذي يفتقده والذي هو حياته ودنياه وعمره ، الى أن ينتابه الملل آخـــر النهار فيعود الى بيته مكدودا جريح القلب . كما تعود الشمس الى بيتها في المغرب مكدودة مخضبة الجبين ، على أن تعود في الصباح المبكر ، وعلى أن يعود هو أيضا في الصباح المبكر . غير أن الفرق بينه وبين الشمس كان كبيرا ، كانت تلك بعد الغروب تجدد قواها وتستعيد نشاطها ونورها حتى اذا ما استيقظت في الصبح أطلت على الكون باهرة الضياء كعادتها . أما هو فكان اذا عاد الى بيته آخر النهار قضى ليله معذب القلب حتى اذا جاء الصبح خرج على الناس مصفرا شاحب الوجه لا تكاد تحمله قدماه ، وظل كذلك الى أن تسرب اليه اليأس القاتل ، اليأس من كل شيء من حياته ودنيـــاه وعمره وقلبه أيضا . فمرض وأصبح جسده الذي كان لايعرف غير الصحة والقوة والنشاط بيتا للعلل وخزانة للأمراض ، وبعد أن كان لا يعرف غير مجالس الضحك وبيوت الهناءة ، أصبح لا يعرف غير مجالس المرضى ،

وبيوت الأطباء ، ولا يتردد الا على الصيدليات ولا يصـــادق الا طبيبا أو مريضا . وبعد ان كانت غرفة نومه لا تضم الا الزهور والورود وزجاجات العطر المختلفة ألوانها أصبحت لا تعرف غير تذاكر الأطبـــاء وزجاجات الأدوية من كل صنف ولون ، وبعد أن كان طاهيه لا يعرف غير التفنن في صنع أجود أنواع الأطعمة وتقديم أحسنها اليه ، أصبح لا يجيد غير تقديم الدواء في مواعيده ، ويصنع طعام المرضى .. وبعد أن كانت الابتسامة الحلوة لا تعرف غير ثغره ، والضحكات العذبة لا تعرف كيف تتألق الا على شفتيه أصبح وجهه لا يعرف غير الكآبة ، وثغره لا يعرف غير الحسرة والمرارة تتمطى من حين الى آخر على شفتيه ، حتى القدرة على السير في الطرقات وبين الناس فقدها . وأصبح لا يرى وهو يسير على قدميه الا نادرا . وظهر كذلك الى أن حدث له ذات يوم حادث عجيب ، كان يسير يوما على قدميه بين الناس متعبا مكدودا . وكان يسير من طريق الى طريق دون أن يدرى الى أين هو ذاهب . وكان يحمل في يده كتابا يحرص عليه ويحب أن يقرأ فيه من حين الى حين ، وكان اسم الكتاب ـ ورود بلا عطر ـ للكاتب الفرنسى جيد . وكانت حياة بطل القصة تماثل حياته تماما . رجل يعيش بين الناس كما يعيشون ، يأكل ويشرب ويبتسم ويضحك ويتحـــدث ويصمت ، وينام ويستيقظ ، ولكنه بلا قلب ، بلا روح ، بلا حياة . وظل يسير والكتاب في يده الى أن تذكر أخيرا أين هو يقصد ، انه يريد أن يذهب الى احدى دور تغليف الكتب ، ليحفظ هذا الكتاب الثمين داخل غلاف يقيه عاديات البلى . ووجد نفسه ، في شارع نوبار ، وأمام مطبعـة معروفة ، فراح يتحسس خطاه اليها فوق الطوار ، وبينما هو كذلك رأى أمامه وبجانب الطوار عربة صغيرة بعجلتين كان يدفعها رجل أمامه وجلس ليستريح ، انه رجل يبيع العاديات « الروبابيكيا » ونظر اليها فرأى أشياء كثيرة غير متجانسة ، وأيضا غير ذات قيمة ، نصف يد لمذبة من السن ، مكسورة الى النصف ، محبرة نحاسية من غير غطاء ، عدة زجاجات عطر فارغة ، عدة اسطوانات مكسورة لمطربين قدامى لعبد الحـــى والحامولى وسلامة حجازى ومنيرة المهدية ، وفردتى حذاء كل واحدة ذات لـــون

مختلف ونصف جوزة هند كانت في الأصل غطاء لشيء ما ، وعدة براويز من الصدف تآكلت جوانبها جميعا ، وشمعدان كان في الأصل من البلور فأحاله الزمن الى ما يشبه الحديد ، نظر الى هذا كله وتأمله جيدا . انها جميعا أشياء ناقصة ، ولكن هل هذا هو ذنبها ؟ هل هذا يحط من قيمتها ، انه هو كذلك ينقصه شيء . وافتر ثغره عن نصف ابتسامة ، وهم أن يواصل سيره ولكنه رأى شيئا آخر مطمورا في قلب العربة ، فتأمله ، وكلما دقق فيه النظر أحس بشيء يجذبه اليه ، ويثبت عليه نظراته ويقربه منه . فمد يده اليه وأخرجه من قلب العربة ، فاذا به تمثال لشيء غريب ، لم يكن من السهل أن تعرفه عندما تراه . كان من الحجر ولرجل ينظر الى الخلف ويبتسم ابتسامة كلها سعادةوكلها هناء . وكلها فرحة تفيض عليه ، وكانت المسافة التي خلف الرجل ينظر اليها ويبتسم مسافة طويلة جدا . عكس مسافة الطريق التي بقيت أمامه . فقد كانت هذه قصيرة جدا ، ووقف هو ينظر الى التمثال ، والى الرجل الذي يمثله ، والى المسافة الطويلة التي قطعها الرجل والتي ينظر اليها ويبتسم هذه الابتسامة ، والى المسافة القصيرة التي بقيت أمامه ، وينظر أيضا الى الابتسامة التي تنير وجه الرجل ، وتضفي عليه كل هذه السعادة وهذا الفرح . ويفكر الى ماذا يرمز هذا التمثال ؟ ما هذه الطريق الطويلة التي قطعها الرجل ؟ . وما هذه الطريق القصيرة الباقية أمامه ؟ . ولماذا هو فرح كل هذا الفرح ؟ . سعيد كل هذه السعادة ، مشرق الوجه كل هذا الاشراق ؟ . انه ولا شك يرمز الى شيء مريح ، مريح جدا ، شيء أحس هو به ولكنه لم يعرفه . ولما عجز عن الفهم سأل الرجل الذي يبيعه ربما يكون عنده السر وقال :

ـ الى ماذا يرمز هذا التمثال ؟ .

فأجابه الرجل دون أن ينظر اليه وكان قصيرا مفرط القصر . له وجه يشبه الدبة تماما ، ويحمل في رأسه كثيرا من الجهل ، كما تحمل عربته أشياء كثيرة ناقصة ، وقال :

ـ علمي علمك .

... فعاد ونظر الى التمثال مرة ثانية ، وتأمله مرة أخرى ، واسترعى نظره هذه المرة ان شيئا ما كتب عليه . فقرأه فاذا به هذه الجملة الغريبة — بعد الأربعين — عند ذلك عرف كل شيء ، ووضح له كل شيء ، وعرف أيضا قيمة هذا التمثال ، ان الرجل مبتهج كل هذا الابتهاج لانه تخطى الأربعين، لأنه قطع أكثر الطريق ، ولم يبق على النهاية الا القليل ... حقيقة أن هذا يبهج .. يبهج كثيرا ، ومن حق هذا الرجل أن يبتهج ، وأن ترتسم على وجهه هذه الابتسامة التي تفيض عليه سرورا وغبطة . ومن حق كل من هو مثله أن يكون كذلك ، وتذكر أنه هو كذلك ، أنه هو أيضا تخطى الأربعين ، وأنه أيضا قطع أكثر الطريق ، وأن الطريق الباقية أمامه هو الآخر قربت ، قربت جدا . فلماذا لا يسعد هو أيضا ، لماذا لا يبتهج هذا الرجل الحجرى الواقف أمامه ينظر الى طول المسافة التى مضت ، ويضحك ويبتسم وتتهلل أساريره ، وأى شيء أدعى الى السعادة من أن ترى بعينك طريق الشقاء قد أوشك أن ينتهى ، من أن ترى ظلمة الليل قد دنا أجلها ، من أن ترى الهناءة الكبرى تمد اليك يدها ، ونظر الى التمثال مرة أخرى ، نظر الى الشيء الذى أبهجه لأول مرة فى حياته وأحس أن قلبه يخفق لأول مرة بشيء غريب يشبه النور راح يتسلل الى قلبه ويبدد ظلمته ، ووقف طويلا وأراد أن يسير ولكنه لم يستطع أن ينزع قدمه من الارض ، أن يرفع عينه من على التمثال . ويقطع ذلك الخيط من النور الذى يتسلل الى قلبه ، ان هذا التمثال أصبح بالنسبة اليه شيئا يشبه الحياة تماما ، انه حياته فهل يتركها وينصرف ؟ ونظر الى الرجل وقال :

— كم ثمن هذا التمثال ؟ .

— جنيهان .

نطقها الرجل دون أن ينظر اليه أيضا ، فخفق قلبه لا لأن الثمن باهظ . فهذا التمثال يساوى عنده مال الدنيا جميعا ، وهو يدفع فيه كل ماله ولكنه اضطرب لأنه كان لا يملك فى جيبه فى تلك اللحظة سوى جنيه ونصف فقط ، ولذلك راح يساوم الرجل ويقول له :

ـ انك تغالى •

فلم يفهم الرجل قوله لأنه قال ، ودون أن ينظر اليه أيضا :

ـ غالى • سيبه •

فخفق قلبه مرة أخرى لأنه رأى الاصرار فى عين الرجل ولكنه قال :

ـ أعطيك جنيها ونصف الجنيه •

فلم تتأثر ملامح الرجل ، وقال وكأنه يضيق به :

ـ أقل من جنيهين مليما يفتح الله •

فنظر اليه لحظات والى الجهل المرتسم على وجهه وقال له :

ـ بكم اشتريته ، وأنا أدفع لك الربح الذى تريده •

فقال الرجل وهو يتأمل بقية سيجارة كانت هناك على الطوار ، وينظر اليها :

ـ بخمسة وعشرين قرشا •

ـ وهل تربح من تجارتك كل هذا الربح ؟ •

فنظر الرجل ضاحكا الى عمارة شاهقة كانت أمامه ، وقال :

ـ لو كان ذلك لاشتريت الآن هذه العمارة •

ـ اذن • لماذا تريد أن تبيعه بجنيهين ؟ •

فقال الرجل وعينه لاتزال ترقب بقية السيجارة التى أمامه على الطوار :

ـ لأنى أنا أيضا صاحب مزاج • ومبسوط منه • فاما أن أبيعه بثمن كبير ، واما أن أبقيه أمامى فوق العربة أنظر اليه وأضحك كما يضحك •

ـ هل تعرف لماذا هو يضحك ؟ •

ـ كما تضحك أنت ، وأضحك أنا ، ويضحك الناس جميعا .

ـ ولماذا يضحك الناس ؟ .

ـ كما أضحك أنا تماما .

ـ وهل تحب أنت الضحك ؟ .

فقال الرجل وهو يمـــد يده ويلتقط بقية الســيجارة من على الطوار :

ـ هل تشترى هذه الاسطوانة ؟ .

ثم مد يده الى العربة وتناول من عليها اسطوانة مكسورة وقال :

ـ انها لصالح عبد الحى ، انه يقول فيها « أضحك من الفم وأبكى من صميم قلبى » وأنا أضحك تماما كما يضحك صالح عبد الحى.

فنظر اليه وتأمل وجهه ثانية وقال :

ـ ولكنى لا أملك فونوغرافا أديرها عليه .

فقال الرجل على الفور وهو يشعل بقية الســيجارة التى تحرق شفتيه ، ويهم بدفع العربة أمامه ليسير :

ـ يبقى مع السلامة .

فلحق به وقال له وهو يستوقفه :

ـ خذ هذا الجنيه ، واحضر التمثال الى فى البيت . وخذ الجنيه الباقى .

فتهللت أسارير الرجل وقال وهو ينظر الى الجنيه :

ـ هل سلم بيتك عال ؟ .

وكان السؤال غريبا فقال له :

ـ لماذا ؟ .

ـ لأننى مريض بالقلب ولا أصعد السلالم •

ـ ولكنك تسير طول النهار على قدميك •

ـ أكل عيش •

ـ اطمئن • اننى أقطن الدور الأول •

فانبسطت أساريره مرة أخرى وقال وهو يتناول الجنيه :

ـ أين مكان البيت ؟ •

ـ مصر الجديدة •

فأظلم وجهه على الفور وقال وهو يعيد اليه الجنيه ، ويدفع العربة أمامه ويسير :

ـ ياعم سيبنا ناكل عيش • احنا فين ومصر الجديدة فين •

فقال وهو يتشبث به مرة أخرى :

ـ خذ الجنيه ، واحضر أنا لك فى الغد آخذ التمثال •

ـ وأين ستجدنى • أنا رجل لا مكان لى • ساعة فى شبرا ، وساعة فى العباسية ، وساعة فى الروضة •

فشعر بكثير من الضيق يلم به • وراح يفكر فى حل أى حل يرضى به هذا الرجل الذى يناكفه الى هذا الحد • ولكنه لم يجد ، ولذلك راح بحـــركة لا ارادية ودون أن يفكر ، يبحث فى جيوبه مرة أخرى لعله يظفر بمبلغ آخر من المال يساوى نصف الجنيه الذى يطلبه هذا الرجل ، ولكنه لم يجد ، وبينما هو فى هذا الضيق ، أقبلت سيارة فخمة تقودها فتاة ذات جمال رائع ووقفت بجانبهما تماما ، وأمام صالة من صالات عرض السيارات ، وفتحت الباب المقابل لهما وهبطت من السيارة وهمت أن تدخل الصالة • فاذا بعينها تقع مصادفة على التمثال فوق العربة • فاذا بها تذهب اليه وراحت تتفحصه جيدا ، ولما رأت عينه هو متعلقة بالتمثال ، وكأنها شدت اليه شدا ، قالت له :

ـ هل تريد أن تشتريه ؟ •

ـ أجل •

فقالت وهي تعيده ثانية الى مكانه من العربة ، وفي شيء من الأسف •

ـ لا تتركه • انه تمثال ثمين •

ثم نظرت الى التمثال مرة أخرى ونظرت اليه مرة ثانية وقالت :

ـ ان عليه الامضاء ، انه لميكلانش ، أكبر رسام ايطالى فى القرن التاسع عشر •

قالت له ذلك ، وانصرفت لتدخل الصالة ، فاذا به يزى نفسه يلحق بها وهو يقول لها فى خجل زائد ، والجنيه والنصف مازالا فى يده :

ـ أرجو أن تقرضيني نصف الجنيه ، لأنه يصر على جنيهين ، وليس معى الآن المبلغ جميعه •

فقالت وهى تبتسم فى سرور زائد وتفتح حقيبتها وتناوله نصف الجنيه :

ـ تفضل بكل سرور •

ولما تناول منها المبلغ قال ولم يزايله خجله :

ـ أرجو أن أعرف العنوان ، أو رقم التليفون ، حتى أتمكن من رد هذا الجميل •

فابتسمت ناظرة اليه دون أن تجيبه وأرادت أن تنصرف ، ولكنه ألح وأمعن فى الالحاح ولما ضايقها الحاحه هذا الزائد ، أعطته رقم التليفون ، وانصرفت الى الصالة مبتسمة مشرقة الوجه كما أقرضته نصف الجنيه مبتسمة مشرقة الوجه •

ولما حمل التمثال معه الى بيته كان لا يدرى أيهما جدير بالشكر على هذه الهناءة التى كتبت له أهذا التمثال الذى فتح له نافذة النور ، ويبدد غياهب تلك الظلمة التى كانت تعيش فى قلبه ، أم تلك السيدة

التي صنعت له هذا الجميل ومكنته من شرائه ، وأحس في أعماقه بفضل تلك الفتاة عليه ، وود لو أنها أمامه الآن ليقبل يدها شاكرا لها هذا الصنيع ، ولذلك عندما استيقظ في الصباح ، كان أول شيء صنعه ، وأول عمل قام به . هو أنه أدار قرص التليفون على الرقم الذي أعطته اياه ، ليشكرها من صميم قلبه وليعيد اليها المبلغ ، ولكن ما ان فعل حتى تراخت يده في أسف شديد كاد يؤذيه في نفسه ، فقد اتضح انها أعطته رقما غير رقمها ، أعطته رقما أي رقم ، أعطته رقما اتضح انه لبائع لب وسوداني في ميدان السيدة ، وعرف أنها غالطته ، وعرف أيضا أن الذوق كان يحتم عليها أن تغالطه ، وأن الذوق كان يحتم عليه ألا يلح عليها هذا الالحاح الذي ضايقها وجعلها تعطي رقما مزيفا، فان السيدة في مظهرها وفي ثقافتها هذه الواسعة ، والمامها بالفن وأهله هذا الالمام الذي جعلها تعرف على الفور قيمة التمثال واسم المثال وتاريخه وبلده ، ليست هي السيدة التي تعطيك مبلغا صغيرا في ظرف كهذا وتنتظر رده . وأعاد السماعة الى مكانها وشيء من الأسف يراوده ولكن لماذا .. لا يدري .. وعاد لمقعده ثانية ، وألقى بنظره على التمثال الذي وضعه في غرفة نومه بجانب سريره تماما . ليراه في كل وقت وفي كل لحظة ، ليراه عندما ينام ، وليراه عندما يستيقظ ، ويراه أيضا كلما خلا الى نفسه ، وجلس وحيدا في غرفته هذه التي كانت الى ما قبل ليلة واحدة تشبه القبر تماما وابتسم ، ابتسم من قلبه لأول مرة في تاريخ حياته الطويل الحافل بالقلق والضيق ، وأحس مع الابتسامة التي ترتسم على ثغره بكثير من الاطمئنان . الاطمئنان لشيء مجهول وزاده اطمئنانا انه رجع بذاكرته الى الخلف ، الخلف البعيد ، البعيد جدا ، فرأى شيئا ، زاده سرورا وزاده من اطمئنانه اطمئنانا ، رأى أول عمره فاذا به قديم . قديم جدا يرجع الى ما قبل مولد هذا الرجل الذي يبتسم أمامه ، ان هذا الرجل بعد الأربعين ، أما هو فبعدها بكثير ، بعدها بخمس سنوات على الأقل ، اذن فهو أكثر سعادة منه ، واذن فهو أكثر كل هذه الابتسامة التي تنير وجهه ، طريق قصيرة حقيقة ، ولكن طريقه ابتهاجا منه . ان الطريق التي أمام هذا الرجل الذي يبتسم لقصرها

هو أقصر ، أقصر بخمس سنوات • وخمس سنوات في حياته حمل ثقيل ، بغيض ، حمل لا يعرف كيف احتمله ؟ انه من غير شك أكثر سعادة من هذا الرجل ، وحانت منه التفاتة الى مرآة كانت أمامه فاذا به يرى وجها غير الذى كان يعرفه بالأمس ، وجها مشرق الجبين ، تمشت فيه الحمرة ؟ يزخر بالنشاط والحيوية ، وجها تتألق عليه ابتسامة عريضة تفوق ابتسامة هذا الرجل الذى أمامه • فأغمض عينيه ، أغمضهما على فرحة صادقة لأنه اطمأن • وزاده هذا الاطمئنان مع الأيام هناءة وصحة ونشاطا جعله يتنقل ويسهر ويؤم الأماكن العامة ، ويلبى دعوات الأصدقاء ويسهر أحيانا حتى مطلع الفجر ، وكلما شعر بالضيق أو الملل يتسرب الى نفسه وعاد الى بيته وألقى نظرة على الرجل الذى يضحك بجانبه ، بجوار سريره • عاوده الهدوء والاطمئنان ونام نوما مريحا ، حتى اذا ما جاء الصباح وفتح عينه على ابتسامة الرجل ابتسم هو أيضا واستقبل اليوم كله مبتسما •

وذهب ذات ليلة الى حفلة ساهرة دعى اليها ، وكان يرحب كثيرا بمثل هذه الحفلات وبينما هو يضحك كالآخرين تماما ، ويرقص ويفرغ هذه الكأس ، ويملأ غيرها • اذا به فجأة يرى وجها أمامه يطل عليه كما يطل النور من الأفق تماما ، فاضطرب قلبه من حيث لا يدرى ، وتسمرت عيناه على وجه تلك الغادة التى أمامه تتيه دلالا وعجبا بجمالها وفتنة بذوقها الذى تتحدث عنه ثيابها التى زادتها فتنة وجمالا ، ودقق فى الوجه الذى أمامه ، دقق فيه طويلا ، ولما توضحت معالمه لعينه خفق قلبه ، وتعالت دقاته ، وهو يندفع الى صاحبته كالسهم ، ويقول لها على الفور ويده تمتد الى يدها :

ـ اننى عاتب عليك يا سيدتى •

فقالت فى دهشة وهى تنظر اليه :

ـ من أنت ؟ •

ـ أنا مدين لك بمبلغ من المال •

فازدادت دهشتها ، وقالت وهي ترد يدها دون أن تمدهـا اليه :
ـ لعلك أخطأت الفهم يا سيدتي .
ـ كيف ، ومازال ـ التمثال ـ في بيتي وفي حياتي ودنياي .
فتذكرت على الفورومدت يدها اليه تصافحه وهي تضحك وتقول :
ـ لقد أعطيتك رقم التليفون ، فلماذا لم تتصل بي ؟ .
ـ اتصلت : ولكن ببائع اللب .
فضحكت حتى كادت تستلقي وقالت :
ـ كنت أظنك أكثر ذكاء ، وفطنة من ...
فقال وهو يضع يده في جيبه ويقاطعها :
ـ وكنت أظنك ...
ولكنها لم تجعله يتم لأنها قالت وهي تعيد يده الى جيبه :
ـ الايصال ليس معي الآن .
فلم يفهم وقال :
ـ أي ايصال ؟ .
ـ ايصال هذا التعارف .
ثم قالت وهي تنظر اليه ضاحكة . وكأنها مبتهجة بشيء :
ـ تصور انني لم أعرفك .
فقال وهو يضحك أيضا :
ـ ليس ذنبك ، وانما ذنب اللقاء العابر .
ـ أبدا . انك الآن في صحة جيدة جدا ، حتى يخيل لي انك غـير الرجل الذي رأيته .
ـ الفضل يرجع الى الطبيب الذي عالجني .
ـ انه طبيب ماهر حقا . من هو ؟ .
فقال ضاحكا وهو يشعل لها سيجارة :
ـ ميكلانش أعظم مثال ايطالي في القرن التاسع عشر .
فضحكت ، وضحك هو أيضـا ، ودون أن يدري ، ودون أن

تدرى هى أيضا • وجدا نفسيهما كالغريبين عن الحفلة ، وجلسا في مكان بعيد يتحدثان ، ويتحدثان طويلا ، ويتحدثان في كل شيء ، قال لها أشياء كثيرة ، لا يدري ما هي ، ولا يدرى لماذا قالها • وقالت هي أيضا له أشياء لا تدرى لماذا قالتها له • ولما انتهت السهرة انصرفا ودعته كما لو كانت تودع شخصا عزيزا وودعها هو كما لو كان يودع جزءا منه ، وفي الطريق رأى ذراعيه تلتفان حول صدره وكأنهما تحملان شيئا • ونظر الى ذلك الشيء ولكنه لم يره نه كان داخل القلب ، لم يره بعينه لكنه يراه بحواسه جميعا بكل جارحةفيه ، انه يعرفه تماما • انه الشيء الذيظل حياتهيبحثعنه • ينقبعليه في كلمكان • انه الآنعرفذلكالشيء الذى كان يفتقده ، الذى كان يبحث عنه في الطرقات ، وفى النوافذ ، وفي السماء وفي الأرض • انه ليس المرأة ، ان المرأة في كل مكان ، وفي كل زمان ، في عينه ؟ وفي جسده ؟ وفي الطريق ؟ وفي البيت ؟ وفي المخدع • وانه أيضا ليس الجسد ، فهو قد عرفه وخبره وأذاب على مذبحة العارى دماءه قطرة قطرة ، قطف عليه زهرة العمر ، وحرق على هيكله شجرة الحياة ، زهرها وظلها وورقها حتى جذورها أيضا احترقت • ومع ذلك لم يجد فيه شيئا ـ لم يختلف جسد عن جسد الا كما يختلف لحم الماعز عن لحم البقر • الكل ذبيحة ؟ والكل لحم والكل طعام فوق المائدة المعدة للأكل ، فقط الذى يختلف هو طريقة تقديم الطعام • اذن ما هو الشيء الذى وجده ؟ عثر عليه •• ؟ امتلأ به قلبه حتى يكاد الامتلاء يرهقه فيحمله بين ذراعيه هكذا ويلفهما حوله فوق الصدر ؟ انه القلب • انه الحب • انه العاطفة • انه الاحساس • انه الشعور بانسان آخر في حياتك لا فى دنياك • بين جنبيك لا بين ذراعيك ، في قلبك وليس فى أحضانك • انه حياتك • عاطفتك • وجدانك • انه قلبك الذى ان وقف لحظة ، وقف الوجود كله ، ولكن الى هذا الحد يكون الحب هو كل شيء فى الحياة ؟ والى هذا الحد يشقى المرء الذى يخطئه • ويعيش حياته معذبا • كما عاش هو حياته معذبا ، وعندما يعثر عليه ويظفر به ، يولد من جديد كما ولد هو

هذه الليلة . وكان قد بلغ مسكنه ودخل مخدعه ، فوقعت عينه على الرجل الذى يضحك بجانب سريره فارتمى عليه واحتضنه وراح يقبله بقوة حتى القاعدة الحجرية التى وقف عليها ، يقبل المفتاح الذى فتح له نافذة الحياة ، اذ لولا هذا التمثال وقصة شرائه ما عثر على الشيء الذى كان يفتقده ، ولما بلغ الفراش ألقى بقلبه الهانيء عليه ومن ثم نام بجانبه . بجانب قلبه ، يناغيه ويناجيه ويهدهده كأم تنام بجانب طفلها الذى ولدته . وظل كذلك الى الصباح ، الصباح الذى طلع عليه من نافذة أخرى جديدة ، نافذة قلبه هو ، قلبه الذى ضحك بعد خمسة وأربعين عاما ، ونهض من مكانه كأنه يتنقل وسط المخدع كالطائر الغرد ونظر الى الساعة فاذا بها الساعة الثامنة صباحا . وهو موعد الدواء ، ولكن أى دواء .. ولماذا يتناوله ؟ ان الدواء يتناوله المرضى فقط . أما هو فلماذا يتناوله ؟ ونظر الى طاولة كبيرة بجانب السرير ، والى زجاجات الأدوية المختلفة التى عليها ، وبدت له الزجاجات أشبه ما تكون بشيء مقرف بشيء تعافه النفس وتتقزز منه . شيء كأنه الذكرى الأليمة تماما . فأطاح بها جميعا من على الطاولة . وألقى بها من النافذة .. ان الذين صنعوا هذا الدواء ، والأطباء الذين أشاروا به ، قوم دجالون ، انهم تماما كالمشعوذين فى الريف ، أولئك يصنعون الدجل باسم الدين ، وهؤلاء يصنعونه باسم الطب ، والفرق بينهم أن أولئك يصنعونه على هيئة أحجبة وتمائم . وهؤلاء يصنعونه على هيئة زجاجات وأقراص . ان الطبيب الوحيد هو ... هو القلب . القلب الذى اذا فرغ فرغت الحياة ، واذا امتلأ امتلأت الدنيا ، ونهض الى التمثال وقبله ودق الجرس فأقبل الطاهى ، فقال له :

ـ أريد اليوم أن آكل دجاجة ، وبعض شرائح الضأن ، وأريد أيضا من اليوم أن تصنع لى الطعام الذى تريده أنت ، لا الذى أريده أنا

فدهش الطاهى وقال :

ـ والطبيب ؟ .

– الطبيب هـــو أنت •• اننى أريد اليـوم مع الدجاجة واللحم ، أيضا حمامة محشوة بالفريك • أسمعت ؟ •

وأحب • وضحك وأكل وشرب ، وعاد السرور والبهجة الى قلبه وحياته ، وكل شيء حتى غرفة نومه ، امتلأت بزجاجات العطر بعد أن كانت تمتلىء بزجاجات الدواء ، والورود والرياحين حلت محل الأربطة والضمادات وحقائب الماء المغلى ، وراح كل ما فى البيت يبتسم ويضحك كما يضحك هو ، وتضحك هى ، ويضحك أيضا الرجل القائم وسط الغرفة بجانب السرير لا يبرحه •

وضحكت الحياة ، وابتسمت الدنيا • كل يوم وفى الثامنة صباحا عندما يستيقظ ويلقى نظرة على التمثال ، ويقبله قبلة الصباح ، وتبتسم الحياة وتضحك الدنيا فى الثامنة والنصف صباحا ، عندما يدق جرس التليفون فى غرفته يملأ رنينه الدنيا أنغاما وتحدثت اليه وهى مازالت فى فراشها ؛ فتسأل عنه وتحييه تحية الصباح • وتسأله أين سـيذهبان اليوم ، ومن أى نبع من ينابيع السعادة سيغترفان اليوم ، وظل هو كذلك وظلت أيضا هى كذلك • ولما امتلأ الاناء بالسعادة وفاض الهناء عـلى جانبه ، وتيقن ان ذلك الجزء الذى هو منه أصبح لا غناء له عنـه وان سعادته انما فى هذا الحب ، فى هذه الفتاة التى التقى بها مصادفة ؛ فعثر معها على الشيء الذى كان يفتقده وظل كل هذا العمر يبحث عنه ، وان سعادتها هى أيضا فى هذا الرجل الذى التقت به مصادفة وأقرضته مبلغا من النقود ، مبلغا معينا بالذات • حتى انها أصـبحت تحب من النقود كل ما يساوى قيمة – نصف الجنيه – حتى لكأن نصف الجنيه هذا هو •• هو الدنيا • لدرجة أنها أصـبحت تحتفظ بكل قطعة من النقود تساوى قيمتها هذا المبلغ لأنها كانت الثمن لسـعادتها ، ولما تيقن ذلك كله ، وقال لها ذلك كله وقالت له أيضا هى ذلك كله ، فكر بينه وبين نفســه فى شيء ، شيء هو كل شيء عنده وعندها ، أن يتزوجا ، أن يربط كل منهما عجلته بالآخر ، لأن فى هذه العروة الوثقى لا التى تربط بينهما فالرباط بينهما قائم ، وليس هناك أوثق من رباط الحب ، ولكن لأن هذا

هو ما يريده القلب حتى لا تتجمع يوما ما فى أفق سمائه بعض غيوم المخاوف من أن يفرق بينهما أحد ، ثم أن هذه العروة هى ضرورة لكل قلب ، لأنها نهاية المطاف لكل حب ، وهى من غير شك ستدخل عليها سعادة أخرى لأن مجرد التفكير فيها أدخل على قلبه سعادة جديدة فلماذا لا يسارع بها حتى يحقق لها هذه السعادة ، ان غاية المحب دائما أن يبحث عن جديد من السعادة لمن يحب ، تماما كغاية العابد الذى يبحث عن الوان جديدة من العبادة يدخل بها الرضا والاطمئنان قلب المعبود ، ولذلك قال لها وهو يشد على يدها مودعا وهما يفترقان ذات مساء :

ــ غدا سأعد لك مفاجأة سارة .

فقالت ضاحكة وكانت هذه عادتها دائما كلما تكلمت :

ــ لى أنا .. ؟

فقال وكأنه يلوم نفسه :

ــ الحقيقة هى مفاجأة سارة لى أنا .

فنظرت اليه وكأن قلبها فهم شيئا ــ لأنها قالت خجلى تغض من بصرها

ــ طالما أنها لك أنت فقل ما هى ؟ .

ــ تفقد المفاجأة قيمتها .

ــ حتى لو كانت أكثر سرورا مما أنتظر .

فقال وكأن قلبه هو الذى يتحدث :

ــ ان يبيت الانسان بالأمل الحلو ، خير من أن يطمئن اليه .

فقالت ضاحكة وكانت يدها لا تزال فى يده :

ــ اذن لن أنام حتى يجيء الغد .

ثم ضغطت على يده ، وانصرفت من أمامه كما ينصرف العصفور الفرح يتنقل من فنن الى فنن ، وانصرف هو الى وكره يحلق بجناحين من نور ، ووقعت عينه أول ما وقعت على التمثال ، فاحتضنه وقبله ، كما تعود أن يحتضنه ويقبله كل ليلة . ثم انصرف الى فراشه ليبيت

على الأمل الحلو ، وفى الثامنة والنصـــف صـــباحا دق جرس التليفون كالعادة فشنف رنينه آذان الزمن بالنغم العذب ، وتحدث اليهـــا وتحدثت اليه كما تعودت ان تتحدث اليه ويتحدث اليها فى هذا الوقت المبكر من صباح كل يوم ، واتفقا على مكان النبع الذى سيغترفان منه هناءهمـــا هذا اليوم ، وكان المكان حديقة مينا هاوس • وهناك تحت شـــجرة السرو الكبيرة جلسا يتحدثان • ويغترف كل منهما ســـعادته من عين الاخر ، وهى تنتظر المفاجأة بصبر نافد • وهو يمد لها فى حبل الامل الحلو الذى تعيش عليه من الأمس والذى راح قلبه يترنم به طوال الليل ونظر اليها فخفق قلبها ، وهم أن يتحدث ولكنها اضـــطربت وودت لو انها تمد يدها وتقفل شفتيه حتى لا تغرقها الفرحة مرة واحدة • وبينما هى كذلك مرت بها احدى صديقاتها وكانت لم ترها من زمن ، فحيتها وصافحتها ودعتها على فنجان من القهوة ، فقبلت الفتاة الدعوة عن طيب خاطر وجلس الثلاثة يتحدثون • وكان فى حديث هذه الفتاة برغم ضحكهـا وابتسامتها الدائمة رنة حزن لها صدى غريب يكاد يرجعه القلب •• ونظر هو الى صديقتها هذه ، فرأى أمامه وجها غريبا للغاية ، وجهـــا صبيحا يفيض شبابا وحيوية وأنوثة صاخبة تكاد تتفجر نارا من كل جارحة فيه ، ولكن فى عينيها شيئا لعله هو الغريب فيها ؟ أو لعله هو الذى استرعى نظره اليها • شيئا أشبه ما يكون بالغيوم السوداء التى تتجمع وتتزاحم حول مطلع الهلال الوليد فتكاد تغرقه فى بحر من السواد القاتم • انهـا تضحك كما يضحكان وتتحدث كما يتحدثان ولكن هذا الضحك ليس مصدره القلب كما يضحك هو • وكما تضحك هدى • ان قلبهـــــا يكاد يكون فى تيه عن كل شىء عن الدنيا وعن الحياة وعن الوجـــود كله وأيضا عن هذا الضحك الذى يفتر عنه ثغرها • ودون أن يدرى وجد نفسه ينظر اليها ويهتم بها وبكل خلجة من خلجاتها وبكل كلمة تصدر منها • ودون أن يدرى أيضا وجد نفسه يتذكر حديث بائع العاديات معه عن اسطوانة صالح عبد الحى :

ـ اضحك من الفم وأبكى من صميم قلبى •

انه يرى أمامه فعلا انسانا يضحك حتى يكاد يستلقى من الضحك في حين أنه يبكي حتى يرنحه البكاء ، وأثار هذا فضوله حتى أنه راح ينظر الى هدى من حين الى آخر وكأنه يريد أن يقول لهــــا شيئا يمنعه وجود الفتاة من أن يقوله • وظل كذلك الى أن انصرفت الفتاة شاكرة لهما هذه اللحظات التى قضتها معهما • ولما انصرفت سأل هدى عنهــا ، وعن سر هذا الحزن الأسود الذى يتراكم غيوما داكنة فى عينيهــــــا الجميلتين ، فقصت عليه هدى قصتهــا وهي أن هذه الفتاة صديقتهــــا منذ الطفولة ، وكانت معها فى مدرسة واحدة وخرجت معها أيضـــــــا في سنة واحدة وكانت أكثر زميلاتهــا فرحا ومرحا وافراغ بل • الى ان قضت بعض الظروف التى لا دخل لها فيها من أن تتزوج رجـلا يكبرها سنا ، رجلا فى العقـــد الخامس من حيـاته ، على حين أنها لم تتجاوز بعد منتصف العقد الثانى ، وأن هذا ينغص عليها حياتها الى حـد كبير ، فهى ان تناست هذا الفارق كزوجة فلن تســـتطيع أن تتناســـاه كامرأة وهي ان رضيت به كرجل صرخت في وجههــا الحقيقة كزوج • وهي ان أرادت أن تشترى حياتها وتعيش كامرأة ، ماتت كزوجة • وهى أيضا ان أرادت أن تعيش كزوجة ، صرخت فى أعماقها الدنيا وطالبتهــا بالحياة ، ولذلك فهى أبدا غير قادرة على أن تعيش ، وغير قادرة أيضـــا على أن تموت •

وكان هو يصغى الى حديثها هذا فى صمت شديد ولذلك قال لها :

ـ وهل هذا هو سر هذا الحزن الأسود الذى يتجمع غيوما داكنة فى عينيها هاتين الجميلتين ؟ •

ـ انه شقوة الظمأ •

فقال فى دهشة :

ـ كيف تظمأ وهي تملك نهرا ؟ •

فقالت :

ـ ولكنه من غير ماء ، وشر ما فى الوجود أن تجدف وأنت عـلى اليابسة •

فنظر الى عينيها الجميلتين والنور الذى يتألق بهاء فيهما ، وقال وهو يرجع بصره :

ــ ان هذا يشقى حقيقة ٠

ــ وأشقى ما فيه الرضا به ٠

فصمت حينا ثم قال :

ــ ولماذا لم تطلق منه ؟ ٠

ــ لها منه طفلان ٠

ــ اذن أنجبت ؟

فقالت :

ــ من سوء الحظ ان الشىء الوحيد الذى لا دخل للسن فيه هو الانجاب ٠

فصمت ولم يجب ، ولكنه قال بعد حين :

ــ وهل هى تحب زوجها ؟ ٠

فقالت له :

ــ بدليل أنها تهرم كما ترى ٠

ففكر طويلا وقال :

ــ وهل يهرم الحب ؟

ــ أجل ٠

فسرح ببصره طويلا ، ثم ارتد به اليها وقال :

ــ كنت أظن أن شجرته تورق دائما ٠

فقالت :

ــ الا اذا انقطع عنها الماء ، جفت وتساقطت أوراقها ٠

ــ اذن لم يكن الحب هو كل شىء ؟ ٠

ــ انه دائما الجسر الذى ينساب بينه النهر ٠

فنظر اليها وقال :

ــ أى نهر ؟ ٠

ــ الذى يروى الشجرة ٠

فقال وهو لا يزال ينظر اليها :

ـ فان جف النهر ؟ •

ـ لم يعد نهرا •

ـ يكون ماذا اذن ؟ •

فقالت ضاحكة وهي تنظر اليه :

ـ يكون كما قلت أنت الآن ، تلك الغيوم الداكنة التي تتزاحم حول مهد الهلال الوليد فتغرقه في بحر من السواد •

فقال بعد صمت وهو ينظر الى عينيها الضاحكتين والنور الذى يشع منهما بهاء حتى ليكاد يضيء الكون :

ـ انك فيلسوفة •

فاستلقت برأسها على كتفه ، وظلت تضحك ، وظل هو صامتا ، الى أن قالت له :

ـ لقد أخذنا هذا الحديث • وانسانا المفاجأة السارة التى أعددتها لى •• قل ما هى ؟ عجل •

فقال وهو ينظرالى ساعته وينهض معها ، لأن موعد انصرافهما كان قد حان :

ـ غدا •

ـ غدا ماذا ؟ •

فنظر ثانية الى عينيها الجميلتين ، ولما رآهما أكثر صفاء ونورا ، قال :

ـ غدا سأحبك •

فقالت وهى تضحك ولكن فى شيء من الدهشة :

ـ غدا • غدا •

ـ أجل .

فقالت ناظرة اليه وكانت ما تزال تضحك :

ـ واليوم ، وأمس . والعام السعيد الذى قضيناه . ماذا كنت تفعل اذن ؟ .

فقال وهو يجاريها في الضحك :

ـ كنت أعد الصفقة .

فغضت من بصرها خجلى لأنها فهمت قصده ، وقالت متوردة الخد ، تنظر الى بعيد جدا حتى كأنها تنظر الى غد :

ـ وأعددتها ؟ .

فقال ويده ترتعش فى يدها لأول مرة :

ـ غدا . سأتمها .

فضغطت على يده التى كانت ترتعش فى يدها وتمتمت وهى تلهث فرحا ، وكأنها تخاطب نفسها :

ـ الى غد .

وانصرفت من امامه كالطائر الغرد الذى يتنقل من فنن الى فنن ، تنتظر الغد وتصنع له من حبات القلب الاكليل الذى سيتوج به فرحة العمر وهناءة الدنيا ، وانصرف هو الى الطريق يسير بخطى بطيئة على غير العادة . ومع أنه مر على داره ابتعد عنها كثيرا ، وظل يسير هكذا فى الظلام وكأنه يعد خطواته خطوة خطوة ، الى أن رأى أمامه فى الطريق شيئا مستلقيا على الأرض أشبه ما يكون بجثة ميت فى ثياب صفراء فاقعة الصفرة ، فتأمله فاذا به ضوء شاحب مصفر ينبعث من قلب حانة من تلكم الحانات الرخيصة ويمتد على الأرض أمامه ، ونظر الى الحانة التى انغلق نصف بابها بعد أن انتصف الليل ، ونظر الى دخان التبغ المتكاثف فى سمائها الصفراء الشاحبة والذى أضفت صفرته على وجوه روادها لونا من القتامة غريبا . ونظر الى حفنة من الحمالين

والحوذية وبعض من نفايات البشر تعودت أن تجلس في هذه الحانة وراهم جميعا برغم سنهم المتقدمة واسمالهم البالية يصخبون ويهرجون كما لو كانوا أطفالا ، وشم رائحة الخمر التي تنبعث من الحانة وكأنه ود لو يشرب منها كأسا ، ولكنه تردد ، وكاد ينصرف لولا أنه سمع شيئا انفجر في الليل فجأة كاد يخيفه ، واذا بها جماعة السكارى تضحك في صوت عال أثر نكتة ألقاها عليهم أحد الرواد . وأحس أنه يريد هو الآخر أن يضحك كما يضحكون ، واشتاقت نفسه الى أن يجلس بينهم وأن يشاركهم في هذا الصخب والضجيج ، وفجأة وجد نفسه في قلب الحانة ، ولكنه وجد نفسه أيضا مرتبكا ، فقد راحت تلك الجماعة تنظر اليه وكأنها تلتهم بعيونها هذا الأفندى الوسيم الذى يريد أن يجلس بينها ويشاركها في هذا الخمر الرخيص ، ولكن هذا الارتباك تلاشى عندما رحب به الحوذى العجوز الذى جلس الى جواره ، ونظر هو الى الرجل العجوز الذى يحييه ، والى الخمر الرخيصة التى يتجرعها كأسا وراء كأس ، ودون أن يفطن الى شيء وجد نفسه يفعل كما يفعل العجوز تماما . القنينة وراء القنينة ، والكأس تلو الكأس ، حتى سكر تماما كما سكر العجوز . وكما سكر كل من في الحانة . وراح يتمايل كما يتمايلون . وكأن هذا أطرب الحوذى العجوز فالتفت اليه وقال له وهو يترنح ، ويتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويقدم له كأسا من زجاجته :

ـ اشرب .

ـ سكرت .

ـ لو انك سكرت حقيقة . لضحكت كما أضحك أنا .

ـ وهل تحب أنت أن أضحك ؟ .

ـ لدرجة أننى أشتريه كل ليلة .

فدهش وقال له :

ـ تشترى ماذا ؟ •

ـ الضحك •

ـ وهل يشترى الضحك ؟ •

ـ أجل وأنا أدفع فيه كل مالى •

ـ ومن الذى يبيعه ؟ •

فقال العجوز ضاحكا وهو يشير الى رجل يقوم على خدمتهم :

ـ هذا الخمار •

فتركه حتى تجرع كأسا أخرى كانت فى يده وقال له :

ـ ولماذا تريد أن تضحك ؟ •

ـ حتى لا أبكى •

فنظر الى وجهه المتغضن ولحيته الكثة وعينيه الداكنتى السواد وقال :

ـ أنت فيلسوف •

فقال الحوذى العجوز وهو يستلقى ضاحكا :

ـ الفيلسوف رجل واحد فقط •

ـ من هو ؟ •

ـ الذى يشترى الضحك •

وكأن هذا القول أعجبه ، لأنه ضحك حتى كاد يصفق بيديه ، واستدعى الخادم واشترى منه زجاجة أخرى من ـ الضحك ـ شربها مع الحوذى العجوز وهما يضحكان • وظلا يضحكان الى أن أغلقت الحانة أبوابها وانصرفا معا الى الطريق يضحكان أيضا • الى أن افترقا وهما يضحكان • وحتى لما افترقا ظل كل منهما يسير فى طريقه وهو يضحك • الى أن بلغ هو داره ، وأدار المفتاح فى الباب وهو يضحك • ولم يمنعه عن الضحك وهو يدخل سوى أنه رأى أمامه رجلا آخر يضحك فارتد مذعورا خائفا ، انه لم يكن ينتظر أنه سيجد رجلا آخر وفى غرفته وفى هذا الوقت من الليل يقف بجوار سريره ويضحك • وتأمل الرجل الذى يضحك أمامه • تأمله

طويلا حتى لكأنه لم يره من قبـل ، وظل زمنـــا طويلا يتأمله ويدقق فيـه. النظر انه رجل غريب عنه • رجل لم تكن له به أدنى صـــــلة • رجل بشع مخيف • ولكنه لماذا هو يبتسم هذه الابتسامة المخيفة • وعـــاود النظر اليه • ودقق في كل شيء فيه • انه يخيفـــه حقيقة • ان هـــــذه الابتسامة التي تسطع نورا على وجهه انما هي ألسنة من نار تمتد اليه • تحرقه •• تأكل جسده أكلا • انهـــا تكاد تجعل كل شيء فيه يرتعش •• ان أسنانه تكاد تصطك • ومد يده المضطربة ، وجفف العرق الغزير الذي تفصد من وجهه•وأغمض عينيه حينا ، ثم عاودفتحهماولكن على نفس الرجل الذي كان مازال يضحك ، انه رجل بشع حقيقة ؛ مخيف حقيقة • ترى لماذا انقلبت سحنته الى هذا الحد • هذه البشـــاعة • انه لم يكن قط تمثالا لرجل يضحك • انه تمثال لثعبان ضخم ، يكاد ينقض عليه يطبق على عنقه بفكيه • وخاف واضطرب ، وأغمض عينيه حتى لا يراه وأطفأ النور أيضا حتى لا يراه •• ومن ثم راح يتحسس الحائط بعيـــدا عنه • ولما ابتعد عنه راح ينزع ثيابه في الظلام ، وما أن فعـــل ودخـــل الفراش وأغمض عينيه حتى اطمأن شيئا ما ، وظل طويلا مغمض العينين ولكنه لم ينم • وأحس وهو كذلك بشيء بجواره يتحـرك • انه الثعبان الضخم ، يقترب منه الظلام • يدنو منه • انه فكاه هـــذان البشعان • وأسنانه هــــذه الطويلة المدببة تدنو من كتفيه وتتحسس عنقـه رويدا رويدا في الظلام • فأغمض عينيه مرة أخرى سريعا ودفن وجهـــه في الوســـادة وراح يبكي • وطال بكاؤه • وطال تحفز الثعبان به • وهم ليشعل النور • ان هذا الظلام هو الآخر يخيفه • ولكن زر المصـــباح كان على الكومودينو بجوار الثعبـان تماما • فماذا يفعـــل ، وبكى مرة أخرى •• وظل يبكي وهو مغمض العينين الى أن فكر في شيء آخر • يدق الجرس ويستدعي خادمه لينام معـــه • ولكن الخادم لا يبيت في الدار • أنه لن يجيء الا السادسة صباحا • ونظر من خلال الدمـــوع الى الثعبان الضخم الرابض بجواره ، ولما وجده مازال متحفزا به يبتسم له تلك الابتسامة المخيفة قبل أن ينقض عليه • لم يجد بدا من أن يهـرب

منه • يتسلل خفية في الظلام ويغــــادر الغرفة ، ويغلق بابها عـــلى الثعبان ، حتى يجيء الخادم في الصـــــباح ، واعتدل في مكانه وغـادر الفراش في حذر ما بعده حذر • وراح يتحسس البــــــاب الموصد في حذر أيضا ما بعده حذر • ولـــكنه أخطـــأه في الظلام ومـــع ذلك ظل يبحث عنه الى أن اهتدى اليه بعد جهد وفتحه على مصراعيه وأراد أن يخرج • ولكنه رأى أمامه في الظلام هوة سحيقة للغاية •• ما هـــذه الهوة التي أمامه ؟ ماهذا الفراغ المخيف الذي ينظر اليه من عل • انه لا يعــرفه ولا يعرف ما هـــو • وظل كذلك الى أن عرفه آخر الأمر • عرفه عندما رأى بعينيه شيئا ثقيلا يسقط أمامه في الليل ويتلاشى سريعا في تلك الهوة • عرف أنه لم يفتح الباب كمـــــا كان يريد ولكنه فتح النافذة • ولما عرف ذلك اطمأن اطمئنانا كبيرا ، ولم يعد في حاجة الى أن يفتح الباب أو حتى يشعل النور ، وانما أحس أنه في حاجة شديدة الى أن ينام ، وما أن استلقى على الفراش حتى راح يســــــبح في نوم عميق •

ولما جاء الصباح كان لا يزال نائما لم يستيقظ بعد ، وكانت النافذة لا تزال مفتوحة على مصراعيها لم تغلقهما يد • وكان أيضــــــا جرس التليفون يدق ، ويدق منذ الثامنة والنصف صباحا ، وينساب رنينـــه المتواصل في قلب الغرفة فيذوب ويتلاشى وسط ضجيج بعـض الصبية الذين يتشاجرون على الطوار تحت النافذة كل منهم يريد أن يســـــتولى على قطعة من الحجر كانت فيما مضى رأسا لرجل يضحك •••

الترحيلة

كان اسمى فيما مضى عائشة خليل • وقالوا اننى سميت باسم أمى • وقال آخرون ان هذا الاسم أطلقته على المرأة التى تبتنى فى القرية بعد أن ماتت أمى • ولكن هذا الاسم تغير فيما بعد ، كما تغيرت حياتى كلها بعد ذلك التاريخ • فقد اشتغلت خادمة فى منزل عبيد أفندى ناظر تفتيش وقف الخصوص • ولم أكن فى يوم ما أفكر فى أننى سأشتغل خادمة أو اننى سأظفر بهذا العمل المريح • ولكن الذى حدث أنه عندما جاءت أيام الحصاد وكنا فى القرية ننتظر أيامها كليالى العيد • ونتشوف نحن البنات الضائعات فى القرى الى خروج أفواج التراحيل فى المواسم تسعى الى التفاتيش والمزارع وتمكث بالشهرين والثلاثة تضرب فى الحقول والوديان ثم نعود وجيوبنا محملة بالقروش والأريلة الفضية التى لم نرها الا فى هذه المواسم فنطعم ونكتسى ونشترى الحلوى • حدث أن رحلت فى ذلك العام مع أنفار الترحيلة الى بلاد وتفاتيش كثيرة ثم استقر بنا المقام فى تفتيش وقف الخصوص •

حقيقة كانت الطريق طويلة والرحلة شاقة كلفتنا الكثير من الصعاب فقد مكثنا ستة أيام وست ليال نسير على أقدامنا فى حر الهاجرة المميت ، وكنا أكثر من مائتى فتاة ومائة فتى ، ودائما كان عدد الفتيات فى التراحيل يزيد على عدد الفتيان ، لأنهن كما كنت أسمع أكثر جلدا على تحمل المتاعب ، وكانت الرحلة لطيفة تغلبنا على متاعبها كالعادة ، لأنه كان المفروض علينا أن نتغلب على المتاعب أيا كانت ، فكنا نضحك ونغنى ونطرب واذا جاء الليل افترشنا أرض أى حقل قابلنا ، طالما هو بجوار مصرف أو ترعة أو نبع يجرى فيه الماء • وكنا ننام كالقطيع فتيانا وفتيات ونساء ورجالا ، وكهولا وعجائز • وكان يحضن بعضنا البعض الآخر ويتلامس فيه من شدة الصقيع اذا كان الطقس باردا • أو نتعرى وننزع بعض ثيابنا ونحن نلهث كالنعاج فى قلب المراعى اذا كان الجو حارا دون أن

يعكر صفونا معكر . حقيقة كانت بعض الكباش تنتهز فرصة العتمةوالتعب والاستغراق في النوم ، وترفع قرونها في الظلام ، ولكن يقظة النعـاج كانت لها دائما بالمرصاد . فما ان تزوم نعجة في الليل حتى تزوم النعاج جميعا ويتعالى صوتها فيضطرب حبل القطيع كله كما لو كان قد سقط ذئب في قلبه وعند ذلك تتراجع تلك الكباش سريعا وتنام فوق التراب وتظـل كذلك مغمضة العين الى الصباح . وقد انتهت الرحلة دون أن يحـــدث ما يعوقها اللهم الا بعض أحداث صغيرة حدثت ، ولكنا تغلبنا عليها أيضا . انه ما من حادث يحدث الا تغلبنا عليــه . فمثلا حدث أن سرقت زوادة فهيمة أم على ، وفقد الجوال بما فيه وسرقة زوادة واحدة منا شيء ليس هناك أبشع منه ولا حتى الموت ، فهى اما أن تجوع طيلة الشهور الثلاثة أو ما يقاربها وهـــذا شيء لا يقدر عليه انسان ، واما أن تقطع الرحلة وترجع ومعنى ذلك أن تحرم فرحة العيد الأكبر الذى كنـــا نقـــضى العام في انتظاره ، لأن عيدنا في القرية الذى كنا ننتظره هو عيد الترحيلة وليس عيد الفطر أو عيد الأضـــحى ، وهى ان لم تفعل هـــذا أو ذاك واقترضت من عم متولى ريس الأنفار تشترى الرغيف من السوق لتأكل فمعنى ذلك أنها ستنفق على طعامها كل يوم نصف الخمسة قروش وهى الأجر الذى كانت الواحدة منا تتقاضاه في اليوم . وبكت فهيمة بكاء مرا ورحنا جميعا ننظر في حسرة الى عينيها المحمرتين وقطرات الدموع التى تتساقط منهما وكأنها نقاط من الدم دون أن نقدر على أن نصنع لها شـــيئا فقد كانت زوادة كل منا مقدرة بمقدار أيام الشهر لا تزيد أو تنقص عنها شيئا . ومقدرة أيضا بمقدار آخر لا يزيد أو ينقص عن ساعات اليوم ، ومقسمة عليه برغيفين ونصف الرغيف ، وهذا النصف هو الذى تتـكون منه وجبة الافطار . فاذا ما نقص هذا المقدار ولو نصف الرغيف فسوف تحرم الواحدة منا طعامها نصف اليوم تماما . وفكرنافى هذا كله وأجهدنا التفكير دون أن نقدر على أن نصنع لها شيئا . ولكن الشقاء دائما اذا كان كبيرا كان الجلد على احتماله كبيرا أيضا . واحتمالك للشيء معنـــــاه القدرة عليه . هكذا علمنا الشقاء نفســـــه . ولذلك كانت فرحتنا كبيرة

عندما تقدمت احدى الزميلات بعد ان رات بؤس الفتاة وشقوة حالها • واقترحت علينا ان نشارك الفتاة جوعها وان تشاركنا هي شبعنا ، وسرعان ما صادف هذا الاقتراح هوى من نفوسنا جميعا فاعطتها كل واحـــــدة منا رغيفا أما قطع الجبن ومخلل الكرنب واللفت وأعواد الجلاوين فقـــد اغدقناها عليها اغداقا • لان الغموس كان لا يهمنا بقدر ما كان يهمنا الشيء الذى نغمسه فيه • وبذلك رجعت اليها حياتها ورجع اليها أيضا قلبهـا ، بعد أن تضخم جوالها ، تضخمت معه الفرحة البالغة فى قلبها وفى قلوبنـــا جميعا • وكذلك لم نجعلها طيلة الرحلة تشعر بأنهـــا تنقص عنا شيئا ، حتى أننا عندما مررنا على أحد الأسواق فى طريقنا ، واشتركت جماعـة منا ودفعت كل واحدة منـا نصف قرش واشترينا كحكة كبـــيرة من العيش « الفرنجيلة » ــ وهـــــو الذى يطلقون عليه فى البندر ــ الخبز الافرنجى ــ أشركناهـــا معنا فى العموس منـــه ، وأقول الغموس منـه لأننا كنا لا نأكل هذا العيش اذا ظفرنا به وانما نأكل عيشنا حتى لانحرم سريعا لذة طعمه ، وانما كنا نقطعه قطعا صـــــغيرة ونضعه فى اناء كبير ، ونغمسه فى الماء حتى يذوب ، ثم نغمس عيشنا فيه ونأكل • ومع أن هذه لذة كبيرة فانها مع الأسف كانت لا تتاح لنا الا نادرا •

وهكذا مر هذا الحادث ، حادث فقد زوادة فهيمة بسلام ، وتغلبنــا عليه ، غير أنه قبـــل أن نبلغ التفتيش بيومين ، حـدث حادث آخر كان لا يقل بشاعة عن سابقه ، فقد حدث أن مرضت وردة ، واشتدت مضاعفات علتها فجأة ، ومع أنها كانت من بدء الرحلة ، بل ومن قبل أن تغـــادر القرية بأيام مصفرة الوجه شاحبة النظرات تنتابها من حين الى آخر رجفة تهز كيانها كله • فانها كانت تأمل القدرة على العمل ، غير أن حرارتهــــا ارتفعت فجأة فى الطريق ، وارتفعت الى حد مخيف ، وراحت تقيء من حين الى آخر وتنتابها من حين الى آخر أيضا اغماءة تفقدها وعيهـــا الى حين ، وقد صنعنا لها أشياء كثيرة ، وضعنا على يافوخها الذى كان يحترق ــ لبخة ــ من أوراق الرجلة ، وأطعمناها عدة رءوس من الثوم لتخفف حدة المغص الذى كاد يقطع أحشاءها ، كما كسرنا لها بصلة كبيرة عـــلى

رأسها وسكبنا ماءها الحار على منخاريها حتى شرقت به خياشيمها ، كما تبرع لها عم متولى الريس ببرشـامة من عنده • ومع ذلك لم تخف حدة آلامها بل زادت الى حد مرعب حتى رحت وأنا بجوارها ممسكة بيديها الباردتين أبكى وأنتحب • فقد كانت وردة صديقة عزيزة تربطنى بها صلة الرحمة كما تربط الأخوة صلة الرحم تماما • فقد ماتت أمها كما ماتت أمى • وتيتمت كما تيتمت ، وعاشت هى فى القرية عبئا على الغير كما عشت أنا تماما • ولذلك كنت أحبها من قلبى وظللت أحبها حتى طيلة السنة الماضية التى غابت فيها عن القرية ولا أدرى أين كانت ، وحتى فى تلك السنة كنت أيضا أحبها ، ونظرت اليها وهى مسجاة أمامى على الأرض مغمضة العينين وعاودنى البكاء ولكنها فتحت عينيها وأشارت الى بيدها المرتعشة أن أعاونها على النهوض حتى تدخل مزرعة الأذرة لتقضى أمرا • وما أن فعلت وسرت بجوارها وهى مرتمية على صدرى حتى انطلقت منى صرخة فى الليل ولكنها مدت يدها سريعا وكتمت أنفاسى حتى لا يسمعنا أحد • فقد رأيت سروالها ونصف جلبابها الأسفل يسبحان فى لجة من الدم • فقلت ذاهلة :

ـ انت مجروحة !

فلم تجب وانما تمتمت وهى تسقط من يدى على الأرض فى قلب الأذرة بهذه الكلمات التى لم أفهم لها معنى حتى الآن :

ـ قالت لى خالتى زينب فى القرية ان عود الملوخية هو الذى ينهى المشكلة •

وظننتها تريد منى أن أجمع لها بعض أعواد الملوخية من الحقل ، فأسرعت لأجىء لها بما تريد ، ولكنها أمسكت بذراعى وضغطت عليها فى عنف وهى تتلوى ، وفجأة انقلبت سحنتها وجحظت عيناها جحوظا مخيفا فى الليل حتى غدت أشبه بعينى قطة تموت وتكورت فى نفسها حتى غدت كالكرة تماما ثم فجأة انفردت صارخة وهى تغوص بيديها فى الطين ووجهها كذلك فخفت خوفا شديدا وارتعدت أوصالى وأنا أنتزع بكل قوتى وجهها المدفون فى الأرض وأخرج بأصابعى الطين الذى

حشى به ثغرها ، ورحت فى ذهول شديد أسألها عما بها فراحت تقـــول كلاما يشبه الأنين تماما ولذلك لم أسمع منه شيئا ، ولكنى عندما وضعت أذنى على شفتيها لأسألها ماذا تقول ، سمعتها تتمتم فى نبرات متقطعة بعض كلمات كثيرة •

كل الذى استوعبته أذناى منها قولها :

ـ قال لى انه سيتزوجنى •

فعرفت على الفور سر وجيعتها وقلت لها وأنا ألطم خدى لسـذاجتنا وقلة عقلنا نحن الفتيات الطيبات :

آلان واحدا وعدك بالزواج وتخلى عنك تصـنعين فى نفسـك كل هذا ! •

فنظرت الى بعينيها الجاحظتين ، وعلت ثغرها ابتســامة شاحبة ، وصمتت • وظلت صامتة ، وظلت أيضا الابتسامة الشاحبة فوق ثغرهـا الملوث بالطين ولم تقل شيئا ولم تأت بأدنى حركة • وكل الذى حـدث أن ذراعها التى كانت على كتفى سقطت فجأة على الأرض ، كما سـقط رأسها أيضا من على فخذى واستقر على الأرض • ونظرت اليها فاذا بها كما هى تنظر الى جاحظة العينين وتبتسم لى تلك الابتسامة الشاحبة التى استقرت على شفتيها الملوثتين بالطين ، فخفت وارتعدت فرائصى ، وصرخت فى وجهها دون وعى :

ـ وردة • تكلمى •

فلم تجب ، فازداد جنونى وصرخت ثانية بأعلى صـوتى وكأننى أستغيث :

ـ تكلمى •• أنا عائشة •• أنا خائفة منك ••

لقد كانت هذه أول مرة فى حياتى أرى فيها انسانا يموت ، ولذلك ظللت أصرخ فى وجهها وأنا أهزه فى عنف دون أن تكلمنى •

ولكنها قط لم تجب •

ولقد أحدث موت وردة فى نفوسنا جميعا اضطرابا شديدا وآلاما لا حد لها ، ولم يكن الحزن على موتها بقدر ما كان الارتباك الذى أوقعتنا فيه الجثة اذ كيف نتصرف فيها • وهل نحملها معنا أم نتركها فى العراء • ولكن عم متولى تصرف تصرفا طيبا ، وضع الجثة تحت شجرة سنط كبيرة وغطاها ببعض أوراق الشجر ، ثم ذهب الى أقرب قرية مجاورة وأبلغ العمدة ، ولما عاد اختارنى أنا بالذات أو أنا التى فضلت أن أبقى بجوار الجثة طالما أن الترحيلة ستواصل رحلتها حتى يجىء العمدة وأهل الخير ويدفنوها ، ولكن الذى حدث كان أكثر بشاعة من الموت نفسه ، فقد حضر العمدة على الفور ومعه بعض الخفراء ، ووصلت فى أثرهم مباشرة سيارة سوداء كبيرة كريهة اللون ، وهبط منها رجل بدين عرفت أنه الطبيب ، وما أن اقترب من الجثة ورفع ذلك الغطاء الملوث بالدماء وهو قطعة من ثيابها ألقيت على وجهها حتى لا تظل ترعبنى تلك الابتسامة التى مازالت منطبعة على الشفاة الملوثة بالطين ، ورأى العينين البارزتين ، والزرقة التى تمشت فى الوجه والجسد كله ، حتى أعاد الغطاء ثانية ، وهو يتمتم بألفاظ لم أسمعها لرجل كان بجانبه وما هى الا لحظات حتى القيت الجثة داخل تلك السيارة أما أنا فقد أمسك بى أحد الخفراء من يدى ، وألقى بى القاء داخل ذلك الجب المظلم وهو قلب السيارة بجوار الجثة ، ثم انطلقت بنا السيارة ولكن الى أين لا أدرى • وكل الذى عرفته عندما فتح باب السيارة الخلفى ورأيت النور ، وجدت نفسى فى فناء مبنى كبير عرفت بأنه مستشفى ورأيت بعض النسوة والأطفال والعجائز يبكون ويولولون ، وجاءت عربة صغيرة بعجلتين يدفعها رجل بسروال أبيض فضفاض ملوث بالدماء ، وأمسك بحلقة فى قلب السيارة وشدها اليه فاذا بالجثة منطرحة عارية على عربته الصغيرة ، ثم دفعها أمامه وهو يتحدث الى بعض النسوة العجائز ويضحك وكأنه لا يدفع أمامه جثة الى أن دخل بها الى عنبر كبير فى مواجهة الفناء • أما أنا فقد عاد الخفير وأمسك بيدى وظل ممسكا بها كما لو كان يخشى أن أفلت منه • ومكثنا كذلك حينا ، الى أن رأيت فجأة باب العنبر يفتح ،

ويخرج منه نفس الرجل يدفع العربة وعليها شيء لم أتبينه فى أول الأمر لأنه كان مغطى بغطاء من المشمع الأسود ، ولكنه عندما اقترب منا ومر من أمامنا متجها الى بعيد رأيت بعض نقاط الدم تسيل وتتساقط من العربة على ارض الفناء • فصرخت وولولت منتحبة ولكن الخفير اسرع ولطمنى على وجهى لطمة موجعة فصمت على الفور • وظللت صامتة وظل هو ممسكا بيدى الى أن جاء رجل طويل فارع الطول يحشو جيب مريلته البيضاء بعدة أوراق ، وأمسك بيده ورقة ووضع فى أذنه قلما ، واقترب منى وقال :

ـ ماذا تبقى لك ؟

فارتبكت ولكننى نطقت على الفور وقلت :

ـ أختى •

ولم أكن فى ذلك أعنى سوى حبى لها ، وصلة اليتم والبؤس التى ربطت بيننا ، وأخيرا هذا الشقاء الذى شاركتها فيه ، قلت ذلك فنظر الى الرجل لحظة ثم قال :

ـ أبوك موجود ؟

ـ لا •

ـ وأمك ؟

ـ ماتت •

ـ من الذى يعولك ؟

ـ ربنا •

فارتسم شيء من الحزن على وجه الرجل وقال وهو ينظر فى الورقة التى فى يده :

ـ أسباب الوفاة ؟

ثم استطرد يقرأ :

ـ اجهـــاض أدى الى تهتك في الرحم ونزيف حاد ونتجت عنه الوفاة •

فلم أفهم شيئا مما قال ، ولذلك قلت :

ـ يعني ايه ؟

فقال وهو يشيح بوجهه عني وينصرف الى امرأة أخرى كانت تبكي

ـ بقى أختك كانت حبلى !

فشهقت ودارت بي الأرض ، ولم أعد أسمع شيئا ولا حتى صوت الخفير وهو يترك يدي ويأذن لي بالانصراف •

ووجدت نفسي في العراء اسير وحدي ، وظللت أسير وظلت الدموع تروح وتجيء في عيني ، وعدة اشباح تتراقص امامي ، وكلمات تطرق أذني من ان الى اخر ••• وجه تمشت فيه زرقة مخيفة ، ثغر محشو بالطين ، انين يصم الاذان ، صراخ لايكاد يسمع ، جسد يتكور كما يتكور القنفد تماما • ثم ينفرد صارخا كما ينطلق السهم في الفضاء •• عود من الملوخية ينهي المشكلة ••• قال لي انه سيتزوجني ••• عينان بارزتان جاحظتان ••• شفتان ملوثتان بالطين وتنشقان عن فجوة مظلمة كئيبة وتقعد عليهما ابتسامة مخيفة لا تتزحزح كما تقعد البومة فوق فجوة في حائط مهدم ••• سيارة سوداء كريهة رجل بدين رجل آخر يدفع جثة على عربة صغيرة ••• نفس الرجل يعود بالجثة مبقورة البطن تنزف منهـا الدماء وتسيل من العربة على الأرض ••• كلام لا أفهمه ، وكلام غيره لا أعيه •• كلام آخر يخرم أذني ••• أختك حبلى •• وشعرت وأنا أسير بضيق شديد • وأحسست ببغض وكراهية لا حد لهما لكل رجال قريتنا وشبابها • ورحت أراهم وأرى وجوههم ، ولا سيما الذين كانوا يتندرون معنا ويخصون وردة بالذات بابتساماتهم وأحاديثهم العذبة ورأيت وجه علي وحميدة ومحمود ، وعبد الستار ، وأبو سنة ، وزيدان ، وخطاب ، والبيلي ، وسالم ، وخليل ، وعبد الغني ، رأيت وجوههم جميعا وتبدت لي كوجوه الكلاب الضالة أو الثعابين الجائعة

فبكيت ، وبكيت بكاء شديدا ، ولم أبك هذه المرة من أجل وردة كما كنت أبكي طوال النهار • وانما بكيت من أجل نفسي ، اذ أين أذهب وأين أقيم ، ان لم أرجع ثانية الى القرية التي كرهت أهلها •

وظللت أسير ، وظلت هذه الأشباح تطاردني ، وهذه الكلمات تطرق أذني ، وتلك الوجوه التي تشبه الكلاب والثعابين تطالعني أينما تلفت ، كما ظلت الدموع تروح وتجيء في عيني ، وتتساقط حينا حتى تسيل على صدري وتبتل بها ثيابي ، وتجف حينا حتى تحترق عيني ، الى أن بلغت التفتيش ، ورأيت عند أقصى ما تصل اليه نظراتي التي أتعبتها الدموع ظلالا صغيرة أشبه ما تكون على الأرض الخضراء وأكوام الحصاد الناصعة بالنقط السوداء التي لوثت الثوب النظيف • فعرفت فيها لداتي وأترابي وأهلي وعشيرتي • ففرحت وهزتني هذه الفرحة وفاضت على قلبي سرورا وسعادة عندما بلغت جموعهم ، ووجدت جوال زوادتي كما هو لم يمس •

كان التفتيش كبيرا وكانت مساحته واسعة لا تحد ، وكان العمل فيه مريحا شأن العمل في الوسايا جميعا ، ولكن الشيء الذي كان يضايقنا ولا سيما اذا اشتدت وطأة الحر هو ابتعاد الحقل الذي نعمل فيه عن مجرى الماء العذب ، وكان هذا يسبب لنا ارهاقا لا يطاق ، ولكن عم متولي بالاتفاق مع الناظر قد استطاع أن يحل لنا هذا الاشكال فقد أوقف عشرا من الفتيات الأشداء وكنت أنا منهم على نقل الماء بالجرار من النبع الى الأنفار في الحقل • وكان النبع على مسيرة نصف ساعة من الحقل ، وكان مكانه جميلا • فقد انبثقت العين وسط بناء قديم مهدم • وقد أقيمت فوقه مظلة كبيرة أو قمرية وارفة الظل هي التي أعدت استراحة للناظر الذي كان دائما لايرى الا فيها أما ينظر بنظارته المعظمة الى الأعمال التي تجري حوله في الحقول ، واما ممسكا بمسبحته الكبيرة يدير حباتها بين أصابعه ، وهو يذكر اسم الله ، واما يصلي اذا حانت الصلاة ، وكان الرجل لطيفا مرحا يميل الى الدعابة رغم سنه التي تكاد تقارب سن عم متولي العجوز • وكان عطوفا يحب الخير ، ويحب أن

يتصدق على الناس ولا سيما علينا نحن فتيات الترحيلة البائسات عندما نجيء نملأ الجرار من النبع • فقد كان يلاطفنا ويشجعنا على تحمل الشقاء الذى نعيش فيه وكان كثيرا ما يتناول غداءه الشهى فى القمرية فكان لا يأكل منه الا القليل ثم يتصدق علينا بكل ما تبقى منه ، وكان كثيرا ولذيذا وشهى الطعم ، وما زلت اذكر اللحظة التى أشار الى فيها ذات مرة فصعدت اليه فى القمرية وكان يتناول غداءه ، فناولنى رغيفا طريا محشوا بالأرز ، ولما انفردت بالرغيف فى الطريق ، ورحت التهمه وجدت فى قلبه شيئا ما كنت لأتصور أننى سأجده فى يوم ما ، وهو ورك دجاجة سمينة كان مجرد رؤية لونه الذى يشبه تماما لون الورد يدخل الفرحة على النفس ، ولو يدرى السعادة التى فاضت على قلبى فى ذلك اليوم بعد أن التهمت كل شيء حتى العظم الذى قدرت عليه أسنانى ؛ أو لو عرف عدد الدعوات الطيبات التى دعوتها له من قلبى شكرا على هذا الصنيع ، ما بخل على مرة أخرى بمثل هذه الصدقة • والغريب الذى دهشت له أن دعواتى جميعا قد استجيبت حتى لكأن أبواب السماء لحظتها كانت مفتحة لى وحدى • فقد حدث أن طلب الناظر من عم متولى أن يختار له فتاة من فتيات الترحيلة تتردد على بيته من حين الى آخر لتنظف له البيت وتملأ له الماء ، وتغسل الثياب • فقد كان الرجل وحيدا فى دنياه لا عائل له ولا معين ، فوقع الاختيار على ، ولم تكن فرحتى بهذا الذى حدث تساوى شيئا بجانب فرحتى برضاء الناظر عنى واعجابه بمهارتى فى تنظيف البيت وغسل الثياب • كانت فرحتى بهذا تفوق كل شيء حتى لذتى بالطعام الشهى الذى كنت أتناوله فى بيته • وكان يجلبه بنفسه من السوق أو أصنع أنا بعضا منه ، بمهارتى وحرصى الشديد على أن أكون عند حسن ظنه • وكان لا يقلقنى فى ذلك سوى مرور الأيام سريعا واقتراب ذلك الشبح المخيف وهو انتهاء أيام الترحيلة وعودتنا الى بلادنا ، وحرمانى من كل هذا النعيم • وظللت هكذا أتعذب كلما اقتربت أيام الرحيل ، ولكن الله الذى وسعت رحمته كل شيء أبت الا أن تملأ قلب الرجل أيضا رحمة واشفاقا وعطفا كبيرا • فقد فاجأنى الرجل ذات صباح وكنت أصب له الماء على قدميه ليتوضأ :

ـ غدا ستنتهى أعمال الترحيلة ، وترحل الأنفار الى بلادها • فماذا أنت فاعلة ؟

فأمسكت أنفاسي وتلعثمت وأنا أنطق بصـــوت خافت لا تكاد أذنى تسمعه :

ـ ما تأمر أنت به •

فصمت حينا مفكرا ثم قال :

ـ أنا لا أعرف ظروفك •

فقلت وأبريق الماء يرتعش فى يدى :

ـ أسعد لحظاتى هى التى قضيتها خادمة لك •

ـ وأهلك !

ـ لا أهل لى •

ووطنك !

ـ هو الذى أجد فيه لقمة العيش •

ثم قصصت عليه طرفا من حياتى البائســة • فتألم الرجل وتغضــن وجهه وقال بصوت خافت وهو ينهض ويتناول حصيرة الصلاة :

ـ على بركة الله •

ولم أدر ما الذى فعلته بعد أن ســـمعت هذا القول ، ولكن الذى ما زلت آذكره هو أنى رأيت عبيــد أفندى وكان طويلا عملاقا ينحنى على الأرض ويمسك بكتفى ويرفع وجهى المبلل بالدموع من فـــوق قدميه التى كنت أقبلهما •

لم يعتبرنى الرجل بعد ذلك خادمة فى بيته كما كنت عندما دخلت بيته أول يوم ، وانما اعتبرنى ابنته تماما • يرعانى ويحرص على ويطعمنى مما يطعم منه ، واذا مرضت فهو الطبيب ، واذا شفيت فهوالصحيح المعافى وراح يستجلب لى كل ما يدخل الفرحة على قلبى الثياب الحريرية ذات الألوان الزاهية ، حتى الملابس الداخليـــة كان لا يستجلبها لى الا من الحرير الخالص ، وكانت النقود معى دائما يغدقها على بكثرة فكنت أشترى

كل ما أريد من مناديل الرأس المزركشة بالترتر وحبات القرنفل وخرج النجف ، والأمشاط أو الخواتم وعقود الرقبــة ذات الألوان البراقة ، والحبات المتلألئه التي تروح وتجيء على الصدر ، وقطع الحلوى والصابون الممسك واللبان الذى كنت أفرقعه طوال النهار بين شدقى فتحدث فرقعته فى أذنى صوتا يفيض على القلب ويملؤه سرورا وبهجة . وكذلك لم تمر ثلاثة أشهر فقط حتى رأيت شيئا غريبا وعرفت شيئا أكثر غرابة ، وهــو أن الفقر والبؤس والشقاء انما هو حرب عوان على الجمـــال والفتنة والشباب الفتى . لقد كنت فيما مضى أشبه بقطعة من الحديد مطمورة فى التراب ، كالحة اللون ، صدئة البشرة نحاسية النظرات . أما اليـــوم فقد نظرت الى نفسى فى المرآة ولما يمض على هذا النعيم سوى شـــهور ثلاثة فاذا أنا انسانة أخرى لا صلة لها أبدا بعائشـــة خليل التى كانت . جمال وفتنة وأنوثة وشباب فائر يصـــطخب فى كيانى ويكاد يتفجر دما من خدى ونورا من شفتى . نظرت الى ذلك وفرحة لم يستشعرهـــا قلبى من قبل ، هى فى فرحة الشباب والصحة ونعيم العمر ، ونظرت فيما نظرت الى أشياء كثيرة وتأملت أشـــياء كثيرة ، وأطلت النظر حتى أننى أحسست بما يشبه الحب لذلك الشخص الذى أمامى فى المرآة ، فتضرج وجهى خجلا ، وازداد هـــذا الخجل وأنا أبتعد بنفسى من أمامه محتضنة ذراعى فى حنان وفرحة غامرة صدرى محتوية بين الذراعين ما عليـه من ثمرتين ناضجتين ولم أفطن أنا وحدى الى هذا كله ، وانما فطن اليـــه أيضا عبيد أفندى . اذ قال لى يوما بأنه سعيد اذ يرى دائما ثمار الشجرة التى يرعاها قد نضجت وطاب أكلها . ولست أدرى لماذا كان يســـعدنى هــــذا القـــول ، ويسـعدنى الى حد كبير وتزداد سعادتى كلما رأيته ينظر الى ويتأملنى فى ابتهاج وسرور كان لا يعبر عنهمـــا الا بالنظر فقط ، حتى أنه سألنى يوما وكنت أعد له الغداء ، وكان من عادته أن يأكل كثيرا . فقد كانت الدجاجة الواحدة لا تكفيه ، فكنت أضع له فى وجبة الغداء ثلاث دجاجات كنت أشاركه فى واحدة منها قال لى :

ـ هل أنت سعيدة يا عائشة ؟ .

فقلت ضاحكة والبشر يتفجر نورا من عينى :

ـ كما ترى •

فقال بعد أن فكر قليلا :

ـ من نعمة الله على ، وعليك أنت أيضا كما أظن • أننا نماثل بعضنا فى أشياء كثيرة •

فقلت خجلة :

ـ العفو • يكفى أنك أنت سيدى •

ـ السيد هو الله يا ابنتى •

ثم صمت لحظات وقال :

ـ انت كما عرفت لا أحد لك فى هذه الدنيا • وأنا كذلك لا أحـد لى ، فما رأيك لو عطف كل منا على الآخر • ونظل الى الأبد ، أن نرتبط بعروة لا تنفصم •

فلم أفهم قصده ، وقلت :

ـ كل الذى يرضيك يسعدنى أن أنفذه •

فنطق وعيناه الى بعيد هذه المرة :

ـ أريد أن أتزوجك •

وكانت مفاجأة لم تخطر لى على بال ، فانعقد لســـانى ولم أجب ورأيت الدموع تنسال من عينى دون أن أدرى •

فقال وهو ينظر الى هذه المرة :

ـ أترفضين ؟!

فلم أجب •

فقال ثانية وهو يربت على كتفى فى حنان لا حد له :

ـ لماذا تبكين ؟

ـ لأننى لم أصدق ما أسمع •

فقال على الفور فرحا :

ـ اذن أنت توافقين ؟!

ـ قلت لك أننى لا أصدق ما أسمع

ـ لماذا ؟!

ـ أأتزوج سيدى ؟!

فقال وهو يمد ذراعيه الى كتفى ويطبع على شفتى قبلة :

ـ قلت لك السيد هو الله •

ثم قال :

ـ فقط سوف يكون هذا سرا الى حين • وسأسافر معك الى بلد بعيد لنعقد العقد • أنت لا تعرفين أهل الريف ولاألسنتهم الحداد • سوف يقولون تزوج خادمته وأنا لا أريد أن تلحق بك هذه الصفة •

فتمتمت وكنت لا أزال أبكى :

ـ افعل كل ما تريد •

فقال :

ـ واسمك من الآن ـ عايدة عبيد ـ وليس عائشة خليل •

ثم تركنى وخرج ، وبقيت وحدى فى البيت أشبه بالحمامة السجينة التى تريد أن تنطلق بجناحيها لتعلن للطبيعة فرحتها •

ولما عاد مع العصر وكان من عادته أن يعود فى هذا الوقت ليستريح قليلا ، رأيته متوعك المزاج ويحمل فى يده لفافة ، فاضطربت وسألته عما به فقال لا شىء وانما هى وعكة خفيفة ، وقد جئت لها بهذا الدواء ، وناولنى اللفافة التى كان بداخلها دواء أحمر اللون ، وطلب منى كوبا فارغا ، وأفرغ من الزجاجة وشرب ، ولا حظت أنه بعد أن شرب هذا الدواء ؛ انطلقت أساريره وابتهجت نظراته • وزاد ابتهاجه وهو ينظر الى ويتأملنى ، وشعرت بشىء من الخجل وأنا أرى عينيه تكادان تخترقان صدرى وأنا أصب على يديه الماء ليغتسل قبل أن يخرج مع المغرب • ومع أننى خجلت حقيقة شعرت بالفرحة الكبرى تفيض على ، ولما تأهب للخروج لم ينس أن يقبلنى مرة أخرى ولست أدرى لماذا شعرت هذه المرة

باضطراب لا حد له ، ولا سيما عندما سقطت يده من على كتفي مصادفة واستقرت فوق الظهر • ووقفت أمامه صامتة أشــبه ما أكون بتمثال • وظللت كذلك الى أن قال وهو يهمس في أذني ويفتح الباب ويخرج :

ـ لا تنامي سوف أعود مبكرا •

كانت هذه الكلمة بمثابة حجر ضخم ألقى في يم حياتي ، وبطبيعة الحال لم انم • وبطبيعة الحال ظل قلبي يدق دقا عنيفا ، وظللت كذلك احلق بجناحي في قلب هذا القفص وهو البيت الصغير الذي احتواني • ولست أدري لماذا أردت أن أستحم قبل أن انام ، او بمعنى أصح قبل أن يجيء • ولست أدري أيضا لماذا انتقيت افخر أثــوابي الحريرية ، وارتديتهــا ، وكذلك ومن غير قصد وقفت قرابة الســاعة الــكاملة أمام المرآة ، وظللت كذلك الى أن شعرت فجأة بشيء من الضيق حاولت أن أعرف مصدره ولكنني لم أوفق غير أنني أدركت السبب • وهو لماذا تأخر الى هذا الوقت ، ولم يجيء مبكرا كما قال ، وأحسست أن الليل قد انتصف أو كاد ولكنني لما نظرت الى الساعة وجدتهــا لم تبلغ بعد الثامنة مساء وأن صلاة العشاء لم تحن بعد ، وهو قد تعود أن يصلي العشاء جماعة مع أهل التفتيش في المسجد • فاطمأن قلبي وانفرجت أساريري • بيد أن قلبي خفق فجأة عندما سمعت الباب يدق ، انه لم يصل العشاء في المسجد هذه الليلة ، وهو سيصليها هنا في البيت وذهبت الى الباب وارتعشت يدي وأنا أمدها وأفتح • ووجهي الى الأرض خجلا أن يفطن الى زينتي في هــذه الليلة بالذات ، ولكنني وجدت أمامي امرأة عجوزا من أهل الريف لم أرهــا من قبل ، تسألني سؤالا غريبا :

ـ انني أريد الست وداد •

ـ من وداد ؟!

ـ التي تعمل هنا في هذا البيت •

ـ ليس هنا واحدة بهذا الاسم •

فارتسمت الدهشة على وجه المرأة ، وقالت وهي تدقق في النظر :

ـ كيف ؟ لقد كانت تعمل هنا أربعة شهور ، وكنت أتردد عليها لأبيع لها البيض والزبد •

ولما لم أجب • استطردت المرأة تقول :

ـ كان اسمها من قبل أن تعمل فى بيت الناظر ـ وردة ـ ولكنه أطلق عليها اسم وداد •

وفتحت عينى ذاهلة ، فلم أر وجه المرأة التى كنت تتحدث الى ، وانما وجدت مكانه وجها جحظت عيناه جحوظا غريبا ، وتمشت الزرقة فيه ، ورأيت شفاها ملوثة بالطين ترتسم عليها ابتسامة مخيفة ، فصرخت وظللت أصرخ وأنا أركض خائفة أمام هذا الوجه • وقد وضعت يدى فوق عينى حتى لا أرى هذا الوجه الذى يخيفنى ، وظللت أركض حتى وجدت نفسى فجأة ، فى لجة ليل حالك السواد ، أضرب فيه على غير هدى ، ورأيتنى قد ابتعدت أميالا عن ذلك الوجه المخيف الذى طالعنى وتنفست الصعداء ، غير أن هذه الفرحة تلاشت عندما طلع النهار ورأيت الثوب الحريرى اللامع الذى أرتديه ، كيف أدخل بهذا الثوب النجس بلدتى الحبيبة ، وأوقعنى هذا فى ضيق وحرج لا حد لهما • غير أننى خرجت من هذا بشىء ما كنت لأنتظره • فقد رأيت وأنا أسير فى الطريق جماعة الفتيات الريفيات يستحممن فى ترعة مليئة بالماء ويصطدن السمك وكن قد نزعن ثيابهن فى القيلولة ، وألقين بها على الشاطىء بجوار شجرة صغيرة فنزعت ثوبى أنا أيضا ونزلت الى الماء بحجة الاستحمام وصيد السمك كما يفعلن ، وكما غافلتهن وأنا أنزع الثوب غافلتهن وأنا أخرج من الماء ، وأختلس ثوبا ممزقا رثا لاحداهن وأرتديه ، وأهرب •

والى الآن لا أدرى هل مازالت تلك الفتاة صاحبة الثوب تسخط على لأننى سرقت منها ثوبا باليا ، أم هى فرحة بالثوب الجديد الذى تركته لها ، كما فرحت أنا به ذات يوم •

ليالٍ من العمر

كنت اذ ذاك شابا وسيما كأى شاب وسيم تقع عليه عينك فى الطريق وكنت مرحا هانىء البال .. كان هذا فى نظر الناس .. وفى نظر كل من يعرفنى أما فى الحقيقة فقد كنت أختلف عن ذاك اختلافا كبيرا . كانت الحقيقة لا صلة لها أبدا بذلك الانسان الذى يراه الناس كانت حياتى اذ ذاك حياة تافهة .. كانت حياتى أشبه ما تكون بغلطة كبيرة . كانت تماما كالخطأ اللغوى فى كتاب قيم . حتى ليدهشك كيف أن هذا المؤلف العظيم يتورط فى مثل هذا الخطأ الذى ليس من السهل اغفاله . وليس من سبيل الى تلافيه الا اذا أعدم الكتاب وأعيد طبعه من جديد وهذا أمر غير ممكن تحقيقه ولا حتى التفكير فيه لأن الله وحده هو الذى يعلم متى سيطوى الكتاب .

وكان هذا يضايقنى الى حد كبير . ويجعلنى أعيش بغير أمل . وأشقى ما فى الحياة انك لا تستطيع أن تحسن الظن بغدك . وانك ترى الأمس دائما أجمل صورة من الغد ان هذا لعذاب كبير . ولذلك بذلت جهودا جبارة لأخلص من هذا العذاب .. تقربت الى غدى وتزلفت اليه وصنعت له من الجوانح معبدا واتخذت منه معبودا ومن ثم رحت أضرع اليه ، لعله يكشف لى يوما عن وجهه الجميل ولكنه لم يفعل . وقالوا ان الخمر قادرة على أن تساعدك .. انها تقلب الحقائق وتطمس معالمها . وتعكس المرئيات وتخلق من القبح جمالا ما بعده جمال . ومن الجمال قبحا لعلك من بشاعته تشفق عليه وأنا لا أريد غير ذلك ، غير ان أجمل وجه الغد . أو على الأقل أشوه جمال الأمس . فأسرعت اليها وشربتها بنهم زائد ، كما كنت آكل اللقمة التى أظفر بها اذ ذاك بنهم زائد ..

وقد استطاعت الخمر فعلا أن تصنع شيئا بل أشياء جاءت بكل ما هو أبيض وسودته ، وبكل ما هو جميل وشوهته ، ومع ذلك ظللت أشربها ، وذات ليلة كنت أترنح وحدى فى الطريق فخرجت على — هائم — من الليل كما تخرج على أى رجل من الليل . واستوقفتنى متهللة الوجه ترقص بعض الآمال العذاب فى عينيها . لأنها

ظنني رجلا آخر • ولذلك عندما راتني تلاشت ذل الابتسامات من على وجهها • وقالت وهي تكفكف من البرد وتزيل بعض الاوحال التي لوثت قدميها العاريتين :

ـ هل افادتك الخمر التي ما زلت تشربها ؟

ولما لم أعرف بماذا أجيبها قلت :

ـ فيم تجولك في الطرقات في هذا الوقت المتأخر من الليل • وفي هذا الصقيع القارس •

ـ انتظر حسنة من عابر سبيل •

ولم أكن أعرف أنها تتسول فقلت على الفور :

ـ أتمدين يدك للسؤال يا هانم •

فأدركت سريعا ما التبس على من قولها وراحت خجلى ترنو بعينيها الواسعتين الى صدرها العارى وتسحب عليه طرف ملاءتها السوداء البالية لتغطى تلك الدائرة التي لاحت من ثدييها أشبه بدائرة كرة من المطاط • وقالت :

ـ ألا تعلم أن اللواتى يجبن الطرقات في هـذا الوقت من الليل وفي هذا الصقيع أيضا يعتبرن ـ الزبون ـ حسنة •

فلم أجب وتركتها وانصرفت أفكر في هـذا الخيط الرفيع الذى جمع بيني وبين هانم كل هذا الزمن الطويل • عرفتها كما عرفت هي نفسها لا أب ولا أم لها في هذه الحياة غير هؤلاء الذين يقدمون اليها هذه الحسنة ـ وكل الذى تعرفه عن ماضيها وعن حياتها انها نشأت هكذا كما تنشأ بعض الحشائش في الصحراء وبين ثنايا الصخور الى أن نشأت هكذا كما تنشأ بعض الحشائش في الصحراء وبين وجدت نفسها هكذا تسير في طرقات المدينة تتبع كل من يشير اليها باصبعه كما يتبع الكلب الأليف صاحبه في الطريق دون أن يدرى الى أى مكان يذهب • أو أى بيت يقصد أو أى شيء يريد أن يفعل • وقد تبعتني هانم ذات ليلة • وكانت مصادفة في تلك الليلة أن أملك بعض المال في جيبي فأغدقت عليها منه الكثير • ولما كاد الليل ينقضي وأرادت أن تخرج أعطيتها ما تبقى معى منه • ومنذ تلك الليلة جمعت

بيننا صلة قوية ولعل ذلك الخيط الأسود الذى يجمع بين حياتي وحياتها هو الذى ربط بيننا تلك الصلة ، فقد اتخذت هانم بعد تلك العيشة من داري دارا لها ولم يكلفني ذلك شيئا ولم يكلفها أيضا شيئا ٠ أو يغير من شيء في مجرى حياتها أو حياتي ٠ كل الذى فعلته انها صنعت مفتاحا آخر للبيت علقته بخيط رفيع حول عنقها ثم لم أرها بعد ذلك الا نادرا ٠ فقد كانت تجيء وتخرج في أوقات غير محدودة ٠٠ الفجر ٠٠ بعد منتصف الليل ٠٠ عندما يجيء الصبح ٠ وكانت تنام حيثما اتفق على الأرض في وسط الغرفة ٠ أو في ركن من أركان الصالة أو فوق مقعد قديم ٠٠ وكثيرا ما كنت أجيء الى البيت فلا أجدها وعندما أستيقظ أجدها نائمة فلا أعرف متى جاءت ٠ وكثيرا أيضا ما كانت تمكث أياما لا تجيء أبدا لا في الليل ولا في النهار ٠ وكانت تفعل كل ذلك تجيء وتخرج وتغيب وتحضر وتنام وتستيقظ دون أن تنبس ببنت شفة ٠ وكنت أنا كذلك لا أنبس أيضا وكأن أحدنا أخرس فلا فائدة من تكلم الأخر ٠ وكأننا استنفدنا كل ما في الحياة من أحاديث ولما لم نجد ما نقوله تذرعنا بالصمت وكان يساعدنا على هذا الصمت الكبير أن أحدنا كان لا يلتقي بالآخر الا نادرا ٠ اما أن أدخل أنا البيت فأجدها نائمة ، واما أن تجيء هي فتجدني نائما ٠ حتى اذا تصادف والتقينا ايقاظا تكون أثقال الحياة قد أثقلت ألسنتنا وأطبقت على شفاهنا وألصقتها كما تلصق لسان الظرف بالصمغ أو الشمع الذى يختم عليه غير أننا أحيانا وفي لحظات قصار جدا تتجاذب أطراف أحاديث مقتضبة غاية الاقتضاب ٠ وأذكر مرة انني ذهبت الى البيت فوجدتها جالسة الى الأرض عارية تماما وقد طرحت على فخذيها ثوبها الأسود الذى لا تملك غيره ٠ وراحت بالابرة التي في يدها ترتق بعض الثقوب التي أحدثها البلى بالثوب ولما رأتني لم تتحرك ولم تصلح من جلستها أو تغير من وضعها وكادت حتى لا تحس بوجودي ٠ وكانت هذه هي عادتها تقريبا ٠ ولفت نظري أنها نظفت البيت في ذلك اليوم تنظيفا جيدا وقد أعجبتني مهارتها الفائقة في تنظيف البيت وترتيب أثاثه هذا اذا اعتبر بيتي وما فيه من أثاث كبقية البيوت وكبقية الأثاث ٠ فقلت لها وكنت لا أدري في الحقيقة ما أقول :

ـ ما دمت بهذه المهارة فى تنظيف البيوت وترتيب أثاثها ، فلماذا لا تشتغلين خادمة فى بيت بدل هذه الحياة التى تحيينها • ؟

فافتر ثغرها عن ابتسامة هادئة وقالت وهى ترنو الى ثقب آخر فى الثوب وتمسك به :

ـ حتى لا أكون كما تقول •

ـ تكونين ماذا ؟

ـ داعرة •

فدهشت دهشة كبيرة وقلت :

ـ اذن أنت ماذا الأن ؟

ـ اننى الآن أبيع المعصية لاشترى بثمنها الرغيف الذى أتبلغ به ، وليس من سبيل الى الاستغناء عن الرغيف أما اذا اشتغلت خادمةفسأطعم وسأشبع وفى الوقت نفسه سأفرط فى جسدى وهذه هى المعصية •

ـ تفرطين لماذا ؟ ولمن ؟

ـ للذين أشتغل عندهم والا طردونى •

ـ هل جربت ؟

ـ فى عشرة بيوت •

ـ عشرة بيوت !

ـ وان لم يكن فى البيت من شاب طامع ففيه شيخ يريد •

فلم أصدق وقلت :

ـ ولا بد من أن يكون فى بعضها أيضا من أخلاق •

ـ تذهب هذه الأخلاق التى تتحدث عنها وأسفاه أمام هذه الآفة التى خلقت معى وكانت هى سر الشقاء كله •

ـ أية آفة • ؟

ـ كمالى •

وصمتت لحظات ظفرت خلالهـا بثقب آخر فى الثوب غير الذى خاطته وقالت :

ـ وتذهب أيضا أمام اعتقاد السادة دائما بأن الخدم ملك يفعلون بهم ما يشاءون .

ورأيتني أقول وأنا أنظر الى صدرها العارى وما عليه من كرتين من المطاط :

ـ والمعصية التى ترتكبينها بالحياة معى ؟

فقالت ضاحكة وهى تمسك بطرف المفتاح الصغير المعلق فى صدرها وتنظر الى لأول مرة أثناء الحديث :

ـ أنها ثمن ايوائك لى .. ولو أنها ثمن الرغيف .. أو لو أنك تملك رغيفا آخر لى لما رأيتنى أغادر بيتك لحظة .

فأطبقت خجلا ومن ثم غادرت البيت وانصرفت الى القهوة . وكنت اذ ذاك أجلس فى قهوة فخمة . كانت أفخم قهـــوة فى المدينة يجلس فيها علية القوم من الموظفين والأعيان وكانوا يظنون انى أجلس فيها لأنني كذلك .. لأننى من الموظفين أو من الأعيان وكانت الحقيقة أيضا تختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، كنت أجلس فيهـــا لعلاقتى الوطيدة بصـديقين عزيزين . كانت صداقتهما هى كل آمالى فى ذلك الحين . كان الأول ـ محمود ـ الجرسون . الذى كان يقدم لى فنجان القهوة أو كوب الشاى ولا يأخذ ثمنه الا بعد ميسرة ، وكثيرا ما كانت هذه الميسرة تدل وتمعـن فى دلالها ولا تجىء الا بعد جهد دونه العرق والدموع . وأحيانا كانت برغم هذا الجهد الجهيد لا تجىء ومع ذلك لم يستعجلها ـ محمود ـ يوما ولم يسألنى قط متى هى ستقلع عن هذا الدلال .. وأما الصديق العزيز الآخر فكان عم ـ أحمد ـ بائع السميط ،كان عم أحمد هذا رجلا ضخم الجثة غليظ العنق منتفخ الوركين دائما ولذلك كان لا يسير الا بجهد . ولذلك أيضا اتخذ من هذه القهوة مقرا له لا يغادره . وعرف زبائنهـــا وعرفته الزبائن جميعا . فراح كل ليلة يملأسلته بالقدر الذى يوزعه عليهم وكان يصنع سميطا فاخرا حقا تتهافت عليه الزبائن ولذلك كان عندمـــا يهل على القهوة وينادى بصوته الأجش الذى كنت أحفظه عن ظهـــر

بقلب • كنت ابتهج ويغمرني السرور وتفيض على البهجة كما لو كنت تائها في بيداء واسعة في الظلام وطلع على النهـــار •• كان عم أحمد هو الاخر يعطيني السميط الى ميسرة • ولكنه كان يختلف عن محمود لأن الميسرة عنده محددة دائما باليوم الاول من الشهر •• ولا دخـــل له ان ساقت في دلالها أو لم تسق ، تمنعت أو لم تتمنع •• وكان يعرف انني رجل نهم ، أو أنا الذى جعلته يظن ذلك ويظن أن ســـــميطة واحدة لا تكفي ولا حتى أكثر من سميطة ولذلك تعود كل ليـــلة أن يجيء لى بثلاث سميطات وثلاث بيضـــات أيضا وقطعة فاخرة من الطماطم المحشوة بالثوم والبقدونس وكنت أوهمه انني أتناول في وجبة العشاء هـذا كله وأتناول معه أيضا أشياء أخرى كثيرة في البيت • هذا لكيلا يســـألنى أو يسألني غيره من الأصدقاء في القهوة لماذا لم آكل هذا الســـــميط في القهوة كما يأكلونه • وكان السر في ذلك انني كنت أقسم الســـميطات الثلاث على الوجبات الثلاث • فأذهب الى البيت وأتناول سميطة وبيضـــة فقط • ثم أحتفظ بالاثنتين كما يحتفظ المسلم بالمصحف في مكان مكين • الى أن يجيء الصبح فأجعل فطوري السميطة الثانية ومعها البيضة • أمـــا اذا جاء الظهر فالثالثة • ثم أظل بعـــــد ذلك الى أن يجيء الليل وأذهب الى القهوة ويهل على وجه عم أحمد • كما يهل النهار على التـــائه في الصحراء ولكن وجه عم أحمـــد الحبيب لم يطالعني في تلك الليلة في موعده • ولا حتى بعد موعده • وصـــــوته الاجش لم يشنف أذنى • وأحسست بدبيب الجوع يدب في أمعائي وكأنه هو الآخر يبحث عن وجه عم أحمد وذهبت بى الظنون مذاهب شتى • وتشعبت في شعاب متعـددة •• لعله مريض •• لعل ســـــنة من النوم أخذته وأنسته هذه البطون الجائعة • أو لعله مريض بوركيه هذه الليلة ولا يقدر على السير • أو لعله من أجل ذلك يسير متباطئا جدا وهو الآن في طريقه الى القهـــــوة وتعلقت بهذا الأمل الأخير • بيد أنني فجأة أرسلت نفسا مكتوما كذلك الذى يرسله من تطلع عليـــه غولة في الليـــل فقد تذكرت أن اليوم يوم جمعة وأن عم أحمد لا يخرج من داره في هذا اليوم ، وأسقط في يدى فأنا لم أتذكر هذا والا كنت عملت له حسابا لأن الأمر لم يكن أمر انني

أقضي ليلة من غير عشاء وانما هو امر الليل كله والنهار وليس من قدرة لبشر على ان يصوم الليل والنهار • ومكثت أفكر فيما عسى أن أصنع وأحسست أنني اذا اقترضت ولو قرشا واحدا من محمود أو من صديق آيا كان من الذين يجلسون معي فسينكشف أمري وستعرف حقيقة علاقتي بعم أحمد وسر السميطات الثلاث كل ليلة بيد أن الله الذي يأخذ بيد الناس في أحرج اللحظات أخذ بيدي في تلك اللحظة دون أن أحتسب فقد تذكرت فجأة أنني أملك قرشا صاغا في جيبي وما أن تحسسته ووجدته في مكانه حتى اطمأن قلبي وتركت القهوة وانصرفت أسير على مهل الى أن بلغت البقال الذي يجاور بيتي وكان رجلا ودودا ولكنه كان يؤمن بالحكمة القائلة أن الشكك كالدين هذا يفلسك والثاني يتعسك ولذلك كان لا يبيع بالأجل أبدا • وكان يفضل أن يمكث اليوم كله لا يبيع بقرش بالنقد على أن يبيع بجنيهات بالأجل • ومددت يدي في جيبي وناولته القرش وطلبت رغيفا وقطعة من الجبن • بيد أنني ما ان فعلت حتى تذكرت شيئا هاما • تذكرت ان المصباح الزجاجي الذي في بيتي قد نضب زيته وأنا أكره الظلام وأخافه وتقلقني وحشته وغير ذلك فقد تعودت أن أقرأ طويلا قبل أن أنام والا خاصمني النوم •• وكنت أملك اذ ذاك بعض الكتب القيمة وكان من بينها كتاب لاناتول فرانس اسمه الزنبقة الحمراء وكان بي شوق شديد الى أن أتمه •• وتذكرت هذا كله سريعا ودون أن أدرك ما أفعل وجدتني أستبدل بالرغيف والجبن زجاجة من البترول حملتها وانصرفت الى البيت ومن ثم أشعلت المصباح ونزعت ثيابي واستلقيت على الفراش ورحت أقرأ وأشبع عيني ناسيا كل شيء • وظللت كذلك الى أن غلبني الجوع وغشي عيني وذوب أحرف الكلمات على الصفحة التي أمامي حتى غدت كالرقعة الصفراء تشوبها بعض الخطوط السوداء الباهتة فأغلقت الكتاب وأغمضت عيني ومن ثم رحت في خاطري أهتف بالغمض الى أن من الله علي به بعد جهد بيد أنني أحسست بعد حين بيد تهزني وبصوت ضئيل يناديني ففتحت عيني فاذا بهانم تقول بصوت خافت وهي تعمل بلسانها في شفتيها الجافتين المتشققتين •

ـ اعطنى قرشا ••
فنظرت اليها وقلت :
ـ لماذا ؟

ـ اننى جائعة وقد انتصف الليل ولم يرزق الله بحسنة بعد • فصمت ولم أجب ولكنى بعد حين وبعد أن كررت هى السؤال قلت :

ـ القرش الذى كان معى اشتريت به غازا للمصباح •

فصمتت حينا ثم تمتمت :

ـ وهل تعشيت ؟ ••

ـ الحمد لله ••

ـ ألم تبق منك لقمة أتناولها •

فصمت ولم أجب هذه المرة بشىء •

فأدركت الفتاة كل شىء • وصمتت هى الأخرى • ومدت يدها الى الملاءة السوداء التى على كتفها وكورتها وصنعت منها وسادة وضعتها على الأرض ثم تمددت بعد أن أطفأت المصباح ولكن عينها لم تقفل اذ ظلت قلقة تنام حينا على ظهرها • وحينا تتكور وتدس فخذيها فى بطنها وحينا تنهض جالسة • الى أن أحسست بها فجأة تنهض واقفة وتتناول الملاءة ومن ثم فتحت الباب وتسللت فى الظلام • فمددت يدى بعد أن خرجت وأطفأت المصباح كما أطفأت أيضا بيدى ذلك النور الضئيل الذى كان يتسرب من عينى المتعبة ومن ثم استغرقت فى النوم غير مدرك للزمن الذى يسير بالناس أحياء كما يسير بهم أمواتا • وظللت كذلك حتى أحسست بحركة غير عادية فى الغرفة ففتحت عينى فاذا بهانم داخلة تحمل على ذراعيها عدة أرغفة من الخبز وعدة قراطيس من الجبن والطرشى والفلافل وتضع كل ذلك على مائدة صغيرة قربتها من السرير الذى أنام عليه ومدت يدها فأجلستنى دون أن تنبس ومن ثم جلست بجوارى تأكل ندهشت وقلت وأنا أنظر الى المائدة وما عليها من طعام شهى يسيل له اللعاب :

ـ من أين جئت بكل هذا ؟؟

فقالت وهى تضع أمامى رغيفا طريا خــرج للحظته من النار تعم رائحته الزكية :

ـ لم أقدر على النوم من غير عشاء • وأحسست بك كذلك وتذكرت أن فلانا قد طلب منى أكثر من مرة أن أمر عليه فى بيته • فذهبت اليــه ففرح جدا وتصدق على بخمسة قروش اشـــتريت هذا الطعام بثلاثة واحتفظت بالقرشين لاقتسمهما معك •

فلم أنطق وكل الذى فعلته اننى نظرت الى الطعام الذى أمــامى ثم نظرت الى وجهها والى شفتيها المتشققتين اللتين تندتا وغدتا كالاقحوانة عندما ترطبها انداء الفجر ومن ثم مددت يدى و ••• أكلت •

صانع الأحزان

أنا وانت والناس جميعا ، نعترف بالقضاء والقدر ، ونؤمن به ، ونرضى عنه ، ولكنه فى أكثر الأحيان يكون رضا المكره على الشيء وليس الراغب فيه لأنه ما من واحد يعيش على وجه هذه الأرض يريد القدر أن يمتحنه ويجتاز الامتحان بنجاح ، حتى أولئك الذين أراد الله بهم خيرا فقال فيهم « الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » حتى هؤلاء اذا قالوا هذا بايمان صادق قالوه وقلوبهم تكاد تتمزق حزنا وألما وغيظا ، وأحيانا حقدا على هذا القدر الذى ـع لهم ذلك الامتحان المرير الذى لم تحتمله نفوسهم ، ولم تستوعب أسبابه عقولهم رغم استسلامهم الدائم بمشيئة الله واعترافهم بأحقيته سبحانه وتعالى فيما يأخذ منهم وفيما يعطيهم وفيما يحيى وفيما يميت • ان هؤلاء أنفسهم ليس من واحد فيهم الا ويسأل نفسه اذا ما أخذ الله منه شيئا ــ لماذا أخذه ؟ وأحيانا ما يزيد على السؤال سؤالا آخر • فيقول مثلا لماذا أخذ الله مالى ولم يأخذ مال فلان ، أو لماذا يأخذ الله ابنى ولم يأخذ ابن فلان ؟

ولعل هذا السؤال بالذات هو الذى كان شغلها الشاغل منذ أن امتحنها القدر ذلك الامتحان القاسى • كانت تسأله لنفسها اذا أمست وتسأله لنفسها اذا أصبحت وتسأله لنفسها اذا أكلت أو شربت وتسأله أيضا لنفسها اذا ضحكت أو بكت ، نامت أو استيقظت • ومع ذلك فلم تظفر بالجواب ، وهى تعلم علم اليقين أنها لن تظفر به ، لأن الله أخفى الغيب عن الناس ، وهو سبحانه وتعالى يقول لمن يسأل سؤالها ، قولا فيه شفقة وفيه عطف ، وفيه أيضا تعزية كبيرة • انه يقول لا تسألوا هذا السؤال ، لأنكم لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع ــ ولكن أى واقع هذا الذى كانت ستختاره أو سترضى به •• ستفضله أو تفضل عليه موت ابنها •• انتزاع كبدها من بين جنبها •• حقيقة هو الذى أعطى ، وهو الذى أخذ ولكن فيم العطاء إذن اذا كان الأخذ لابد منه ؟ بل ولماذا يأخذ منها هى ولم يأخذ مثلا ••• وزمت شفتيها سريعا ، وأطبقت على أنفاسها فى

عنف حتى لا تفلت منها كلمة أخرى من هذا الذى تهذى به ، هذا الذى يكاد يبلغ الكفر والجحود ، وهى التى لم تعرف فى حياتها غير الايمان والخير فى كل ما يجىء به الله • وقد أعطاها الله سبحانه وتعالى الكثير من الخير الذى عاشت عليه طوال حياتها ، فقد نشأت لا تعرف الا الخير ، الخير لنفسها ، والخير لأسرتها ، والخير للناس جميعا ، ولكل من يحيط بها • حتى جمالها الذى كاد يبلغ حد الفتنة ، لم توجهه الا للخير كما توجه الزهرة عبيرها للنفوس فتريحها حتى أنها عرفت فى الكلية بالزهرة ، ونوديت بنصف اسمها ، يناديها الطلبة ، وتناديها الطالبات ويناديها الأساتذة بخير •• واختفى اسم خيرية ، حتى كادت اذا ناداها أحد بخيرية ظنته ينادى غيرها ، وكان هذا يسرها كثيرا وتعمل جاهدة لتكون عند حسن ظن الناس بها • وكان هو أستاذا لها فى الجامعة ، وكان يؤمن بها ايمانا كثيرا ، ويؤمن بمستقبلها ، ويؤمن أيضا بطهارة خلقها ، ويرى الراحة الكبرى فى أن يقص عليها أخباره ، ويستشيرها فى أموره ، ويحتفظ عندها ببعض أسراره •

كانت له كأم وكأخت وكابنة • وكانت هى أيضا تطمئن اليه الاطمئنان كله ؛ وتقول كلما ذكرته أو ذكرت اسمه : ان الأبوة ليس من المحتم أن تكون من الصلب ، وان الأخوة ليس من الحتم أن تكون من الرحم • والا فما كان هولها أبا وأخا وصديقا وفوق ما تعرف الناس والصداقات • كان لا مطمع لها فيه لأنه زوج • وكان لا مطمع له فيها لأنه على خلق • ومثل هذه الصداقة من النادر وجودها ، ومن النادر أيضا أن تنفصم عراها ، أو يعكر صفوها معكر ، وكانت سعادته بذلك لا تكاد تدانيها سعادة فى الوجود ، الى أن جاءها ذات يوم وهو لا يكاد يفتح عينيه من الحزن ، ولا يكاد يأخذ أنفاسه من الألم واللوعة • فقد ماتت زوجته أثناء عملية وضع قاسية بعد أن عجز الأطباء عن انقاذها ، وعجزت قوى الأرض جميعا أيضا عن الابقاء على حياتها ، لقد أراد لها القدر الموت أرادها •• لماذا تزوج ، وأحب زوجته كل هذا الحب ؟ اذا كان لابد من الدنيا ، وهو حائر فى كل شىء ، حائر حتى فى ارادة القدر هذه التى أراد لها أن تدخل القبر ، فى نفس اللحظة التى يخرج فيها ابنها الى

هذا الفراق ، ثم لماذا قدر لهذا الطفل أن يجيء . ثم لماذا أيضا قدر لأخيه ان يجيء من عام مضى ، طالما أنهـــا ستموت .. طالما أن اللذين انتزعتهما من بين احشائها لا تراهما ، طالما أن الوليدين سيفتحان اعينهما الصـغيرة التي لم يكتمل نموهما بعد على كل شيء الا امهما ، ثم مدا سيصنع لهمـا وكيف السبيل الى تربيتهما ؟ انه وحيد ، ولا أم ولا شـــقيقة ، حتى كان يطمئن الى واحدة منهما وهو لا يستطيع أن يتزوج ثانية ، وحتى اذا فكر في الزواج مرة أخرى فمن التي ستأخذه على ابنيه ؟ من التي في الوجود كله تستطيع أن تستشعرعاطفة الأمومة ، وتقدريدها أن تكفكف غرب اليتيم وتمسح دموع الحرمان ثم كل هذا الحب الذي غرسه الله في قلبه لأبنائه .. وفكر وانسابت دموعه على خديه كالســـيل ، وكانت أول مرة تراه تبكي ، وأول مرة تراه يتوجع من الألم في صمت كما يتوجع الجـــواد الأصيل الذي يتألم . فذهلت ، وارتعشت ، واضطرب قلبها حتى اهتز هزات بين جنبيها واذا بها تعرف شيئا كانت تجهـــله ، تعرف أن أحزانه هي أحزانها ، وأن آلامه هي آلامها ، وأن زفرات الألم التي تقطع نياط القلب هي زفراتها هي ، لأن قلبها هو الذي كان يتقطع حتى لتكاد دماؤه تنزف قطرات ، كما ينزف هو تماما الدموع من عينيه ؟ وتتساقط قطرة قطرة .. ولكنها كانت أكثر منه احتمالا للألم ، وهذه ميزة ميز الله بها النساء اذ جعلهن أكثر جلدا وأكثر تماسكا ، وأكثر أيضا صبرا على احتمـــال الخطوب ، وقدرة على تحمل حرقة النار التي يشوى بها القدر قلوب من يريد من البشر . وكان لهذا الصبر والجلد والايمان أثره في قلبه ، فقد استطاعت التلميذة أن تخفف عن قلب أستاذها وأن تتمكن بابتسامتهـــا الدائمة التي تقطر صفاء وطهرا أن تبدد أكثر أحزانه ، وأن تفهمه أن الخير في أن نرضى ، وطالما أنه لا ارادة لنا فيما يصـــيبنا من خير أو شر فعلينا أن نستقبل الشر كما نستقبل الخير تماما . طالما أن كله من عند الله ، وطالما أنه ليس في استطاعتنا أن ندفعه عنا أو نأخذه لنا ، وراحت جاهدة تعمل على تخفيف أحزانه ما استطاعت الى ذلك ســـبيلا ، وعرفت أن أحزانه الحقيقية انما هي من أجل طفليه الصغيرين اللذين تيتما ، فركزت كل عنايتها بالطفلين اليتيمين ، فكانت تختلس وقتها اختلاسا وتذهب الى

بيته أثناء غيابه عنه ، وتأخذ لهما الحلوى ، وتشرف على أكلهما ونومهما وحتى لعبهما التى يلعبان بهـــا ، وتوجه الدادة والخدم الى كل ما فيـــه راحتهما وهناءتهما مما كان له وقع حسن فى قلب الطفلين وجعلهمـــا ينسيان الى حد كبير البكاء والعويل والسؤال عن أمهما وأين ذهبت ولماذا لم تعد بعد من سفرها الطويل .

واستشعر الأستاذ صاحب القلب الكبير جميل تلميذته عليه ، وأراد أن يرده لها مضاعفا ولكنه لم يقدر أنها هى نفسهـــا الجميل فكيف يرده اليها ، ان فى اشراقة وجهها ، وفى ابتسامة ثغرها ، وفى صفاء عينيها ، وفى نبرات صوتها . .وحتى فى وقع خطواتها عـــلى الأرض ، ان فى مجموع هذا كله ، أو جزء منه الجميل الذى قدمته اليه ، فكيف به يرده اليها ، وفكر ، وفكر طويلا وأجهده التفكير فاذا به يجد أن الجميل الذى يريد أن يرده اليها ، هو فى ذات نفسه .. فى حياته .. فى دنياه . فى وجوده ولما تيقن هذا وعرفه جيدا ، وعرف أن لاخلاص له منه . ذهب اليها ذات يوم وقال لها فى بساطة متناهية ، لا تكاد تعدلها بساطة فى الدنيا ، حتى لكأنه يقول لها تعالى لنذهب الى السينما ، أو تعالى لنشرب كوبا من عصير الفاكهة . فى هذه البساطة قال لها وهو يسير معها فى فناء الكلية ذات يوم :

ـ ما قولك فيما اذا تزوجنا .

فأجابته فى نفس البساطة وهى تسير بجانبه وكأنها توافقه عـــلى الذهاب الى السينما ، أو على شرب كوب من عصير الفاكهة :

ـ لا شىء . نتزوج .

***

وتزوجا ، ولم يخيب الله ظنه فيها ، ولم يخيب الله أيضا ظنها فيه ، فقد بدأ حياته منذ أن تزوجها ، وبدأت هى عمرها منذ اليوم الذى تزوجته فيه . ومن أفضال الله على الانسان أن وهب له النسيان .وجعل كل شىء ينسى مع الأيام . فقد نسى انه كان حزينا ، ونسى أيضا أنه كان زوجـا لغيرها ، ونسى أيضا أن مخلوقة كان يعزها ماتت . ولم ينس هو فقط ،

انما نسى أيضا من كانوا أكثر صلة منه بالأحزان والآلام واليتم المرير ، نسى الطفلان الصغيران أنه كانت لهما أم وماتت ، أنستهما الفتاة الطيبة الخيرة ، أنستهما أمهما ، وتيتمهما ومرارة الحرمان الذى كانا يتجرعان غصصه كلما شاهدا طفلا مع أمه أو شاهدا أما مع طفلها . وقد أثابها الله على هذا بخير جزيل من عنده ، وكافأها على هذا الخير الكبير مكافأة لا تنتظر زوجة فى الوجود أحسن منها ولا أكرم ، فقد وهب الله لها فى عامها الأول من الزواج طفلا جميلا رقيقا كان قرة عين لها ولأبيه وللبيت كله . لقد أضفى عليهم مولد هذا الطفل سعادة فوق سعادتهم وهناءة فوق هناءتهم ، كما زادهم هدوءا وأمنا واطمئنانا للحياة والدنيا . ولم تكن سعادة الصغيرين بهذا الطفل بأقل من سعادة أمه وأبيه وقد جادت عليهما الحياة بأخ ثالث يكاد يقرب منهما سنا ملأ عليهما البيت نورا والقلب اشراقا والحياة بهجة . وكان هو شغلها الشاغل ، كان هو لعبهما وضحكهما ومرحهما وسعادتهما كلها ، يلعبان حول أرجوحته ينظران اليه فيضحك فيضحكان ، ويهز لهما يده الناعمة الرقيقة فيهتز معها قلب الواحد منهما فرحا وسرورا ، وتخطى الطفل مرحلة الأرجوحة ، وعرف كيف يستقيم على قدميه ، فهرع الصغيران به الى الحديقة ، وراح الثلاثة يلعبون ويمرحون ، يحفرون الأرض ، ويقطفون الزهر ، ويسقون الشجر ، وكان لكل من الصغيرين أدوات البستانى الكاملة ، الجاروف والمقص والشقرف والرشاشة يلعبان بها ويزرعان بها الزهر والشجيرات الجميلة وكان لكل منهما شجرة يرعاها ويرويها ويسهر عليها ، فجىء للطفل بالأدوات ، وزرع كأخويه شجرة ورد ، وكانت فرحة الطفل بشجرته التى سميت باسمه لا تقدر ، يهرع اليها اذا أصبح ويودعها اذا أمسى ، ولا يرى الا عندها أو معها حاملا على كتفيه الصغيرتين أدواته يحفر حولها مجارى الماء ، أو يحمل على يديه الصغيرتين الماء لها ، ويرفع عنهاالأعشاب الخبيثة اذا نبتت بجوارها وحولها ، ومن حوله الصغيران يساعدانه اذا احتاج لمساعدة ، ويحملان عنه الجاروف اذا عجزت ذراعه اللينة عن حمله ، ومن خلفه قلبان عطوفان سعيدان يطلان عليه من الشرفة أو النافذة . يبتسمان اذا ابتسم ، ويتحركان اذا تحرك ، ويقفزان هلعا اذا

تعثرت قدمه الصغيرة ، أو يترنحان ضحكا وسرورا . ومن خلف هـؤلاء جميعا شخصت عين أخرى ، ترى وترقب وتتأمل هـذه السعادة الكاملة التي ترفرف بجناحين من صفاء على هذه الأفئدة الهانئة ، وعلى هذه القلوب الناعمة ، وهذه الأسرة السعيدة ، وهـذا البيت الذى أمن من خوف ، واطمأن من قلق ، وتنسم عطر السعادة صافيا بعد أن خنقته سحب الأحزان زمنا ، وكأن هذه العين رأت في هذه السعادة الخالصـة شيئا جديرا بالاهتمام والتعمق والوقوف عنده حينا .. لماذا لا يكون هذا النبع الذى تنبع منه كل هذه السعادة هو نفسه السؤال الذى يجيء في الامتحان ، أجل لماذا لا يكون هذا النبع نفسه هو الامتحان بعينه ، وما أن اطمـأن القدر ، واطمأنت عينه التي لا تغفل الى عنف الامتحان وقسوته ، حتى راح يضع سؤاله أثر ليلة باردة الطقس أصيب فيها الطفل العزيز بنوبة حادة من البرد ، وما كاد يخلص الممتحن من امتحـانه في اليـوم الثانى حتى كانت أعراض الالتهاب الرئوى تمزق صدر الطفل الصغير وتخنق ذلك الضوء الذى كان يشع من عينيه الصغيرتين الجميلتين ويحيلهمـا الى ثقبين من الدم الأسـود الذى تغمر زرقته وجه الطفل حينا فتحيله الى السواد ، وتنزح عنه حينا فتحيله الى صفرة أشد بشاعة من الموت نفسه ، وما أن انتهى الممتحن من آخر سطر وضعه في امتحانه في صـبيحة اليوم الثالث ، حتى لفظ الطفل الوديع آخر أنفاسه ، فمات معه أيضا كل شيء ، مات الأمل .. ومات الضحك . ومات النور ، ومات الهناء ، وماتت الأسرة . وأصبح كل ما في البيت حتى القاعدة والأسرة والتحف والتماثيل أصبح ذلك كله أشبه بالجثث العفنة الكريهـة التي تتناثر في العـراء وتزدحم في الليل أثر معركة حربية طاحنة بين جيشين هائلين ، وكانت الأم هي الوحيدة في وسط هذا البيت الذى ينساب أنينها في الليل وفي النهار ومع كل رعشة من ثغر أو دقة من قلب أو رجفة من فؤاد . فتملأ البيت آلاما وأوجاعا . تماما كما ينساب في العـراء وسط تلك الجثث المتناثرة صوت جريح يموت فيملأ آذان الكون أحزانا دون أن يسمعه أحد . كانت الطعنة بالنسبة اليها قاتلة ، ولكنها من سوء حظها لم تمتها ، بل أبقت عليها لا لشيء الا ليزداد عذابها تماما كمـا أراد الممتحن من

امتحانه • كان كل شيء تقع عينيها عليه في البيت ، وكل صوت تسمعه أذنها سواء لها او لغيرها ، يذكرها بقرة عينهـا الذي كان • غرفته •• سريره •• أدوات لعبه •• الغرفة التي كان يفتح ابوابها • والمقاعد التي كان يعبث بها •• الحديقة التي كان يلعب فيها • وشجرة الورد التي زرعتها يده الصغيرة •• الطفلان •• الطفلان الصغيران • يا للفاجعة • طفلها هي الذي يموت دون الأطفال جميعا • ابنها هي هو الذي يموت من بين الثلاثة • ابنها هي هو الذي تحرم منه •• ؟ لماذا جاء اليها اذن •• لتتعذب كل هذا العذاب •• ؟ لماذا تذوقت اذن كل قطرات تلك السعادة وهي ابنة العشرين ، واستشعرت كل هناءة الأمومة ولذتها وجمالها ؟ لماذا • ولماذا • ولماذا •• وظل هذا السؤال • أو هذه الأسئلة تلم بها ان أمست وتلم بها ان أصبحت • وتلم بها كذلك كلما قامت أو قعدت أكلت أو شربت حتى وجدت نفسها دون أن تدرى ، ووجدها أيضا كل من في البيت فتاة غير التي كانت ، ذهبت تلك الوداعة ، وتلاشت تلك الاشراقة التي كانت تنير الجبين ، وذهب ذلك الصوت الناعم والبسمة المتألقة ، والنظرة الحنون ، انها لا تطيق أن ترى أحدا في البيت ، ان الطفلين الوادعين اللذين كانا مبعث سعادتها ، أصبحا مبعث شقوتها وأحزانها ، اذا ضحك أحدهما تذكرت ضحكة ابنها • واذا بكى أحدهما تذكرت بكاء ابنها ، واذا ناداها أحدهما ــ يا ماما ــ أدمى الألم قلبها ، لأنه يذكرها بحرمانها من هذا اللقب • واذا رأت أحدهما وهو يسير أو يلعب رأت معه ابنها الذي كان معه يلعب ويرتع ويلهو ويملأ البيت نورا • واذا رأت الأب يداعب أحد طفليه أو يلاعبه فهو كان يفعل ذلك يوما مع ابنها • وقد فطن الزوج الى ذلك فراح يخفف من هذه الآلام ولكن على حساب الطفلين الصغيرين اللذين لا ذنب لهما ، فهو لا يضاحكهما كما كان يفعل ، ولا يداعبهما كما كان من قبل ، ولا يذكرهما بخير ولا بشر ، وأحسا بذلك ، كما شعرا بأن رؤية الأم لهما أصبحت تخيفهما فانزويا وراحا في يتم قاتل وحرمان مرير يبتعدان عن زوجة أبيهما ما استطاعا وعن أبيهما أيضا • حتى أن الطفل الصغير سأل أخاه ذات يوم وهو منزو معه في ركن ناء من أركان الحديقة تعودا أن يذهبا

الیه حتى لا يراهما أحد ـ لماذا أمنا ماتت ـ فاجبه اخوه نی سذاجه

لا يعرفها غير قلب طفل يتيم ـ بل قل لماذا أخونا مات ـ وهكذا استشعر الطفلان حقيقة يتمهما بموت اخيهما اكثر مما استشعراه بموت امهما اما الأم فقد ابت عليها أحزانها أن تستشعر هذا ٠ اذ اصيبت بحالة شاذة تكاد تشبه الجنون الى حد كبير ، ان ابنها لم يمت ، ان عينها ان كانت لم تره فان قلبها يراه ، ويراه في كل لحظة ، وفي كل ساعة بل وفي كل دقيقة ٠٠ ان غرفته هي هي لم يقربها أحد ولم يجـرؤ مخلوق على أن يفتح لها بابا وسريره كما هو تنظمه له كل يوم في الصباح وفي المساء ، ولعبه كما هي ترتبها له كما كان يريد ، وأدوات حديقته هي هي مازالت تحملها في يديها كل صباح ومساء كما كان يفعـل تمـاما وتهبط الى الحديقة وتذهب الى شجرته التي أحاطتها بسور صغير حتى لا يعبث بها أحد ، وتروح تسقيها رشاشة الطفل التي تتساقط منها دموعها فتسـقى الشجرة كل يوم بالاثنين : الماء والدموع ٠٠ أمـا اذا جاء الليل فتعد له ملابس النوم النظيفة ، وتضعها له على السرير وتروح تنتظره حتى يجيء وكثيرا ما كانت تنتظره الليل كله ، أما الزوج فكان يرى هذا كله فلا يستطيع الا أن يشفق عليها من قلبه الذي كان ينظر لها كل يوم مرات أما الطفلان ، ، فكان يمر اليوم بل اليومان ، بل الأسبوع أحيانا لا تراهما وكانت عدم رؤيتها لهما تسبب لها بعض الاطمئنان دون أن تدري ٠ حتى أن الزوج فطن الى هذا ، فلم يغضب ولم يثر أو يتأذ وانما فكر في الأمر طويلا ، وفكر فيه بعد أن وضع نفسه في مكانها هي ٠ فاذا به يسـأل نفسه هذا السؤال : لماذا ابني بالذات هـو الذي مات ؟ بل فكر في شيء آخر ، شيء كان له أثره في نفسه وفي الحقيقة وفي المنطق أيضـا ، شيء جدير بأن يعيد الى زوجته الكثير من الأمن والاطمئنان والهدوء ، بل النسيان ٠٠ ان الشيء الوحيد الذي يذكرها بالطفل أو الفجيعة التي حلت هو طفلاه ٠٠ ان مجرد رؤيتهما تجعل هذا السؤال ـ لماذا ابني هو الذي مات ـ يتكرر دائما ٠ وهو يحب طفليه هذين حبا جما ، كما يحب تماما كل أب أطفاله حبا جما ٠ وهو أيضا يحب زوجته حبا خالصـا ما بعده حب ٠ وهو فوق ذلك كله يقدر هذا الظرف القاسي الذي وضعها

في حظها العاثر ، ونصيبها المشئوم ، فلماذا والحالة هذه لا يصنع شيئا .
يأمل من ورائه الكثير من الخير لأولاده ولزوجته ولنفسه بعد ذلك .
انه لا يستطيع ان يعيش من غير زوجته ، وزوجته لا تستطيع ان ترى أولاده ، دون ان ترى ابنها ، ان له عمة في الاسكندرية وهي سيدة عطوف حنون عليه وعلى ابنائه . فلماذا لا يذهب الطفلان ويعيشان معها هناك ، وعمته ميسورة الحال وهو أيضا ميسور الحال يستطيع أن ينفق على أطفاله ويكفل لهما في كنف عمته الهناء والاطمئنان الذي يريده كل أب لأولاده ، وبعد ذلك يترك هذا البيت وهذه الحديقة وهذه الشجرة وينتقل بزوجته الى مكان أخر بعيد عن كل هذا الذي يذكرها بقلبها الذي فقدته . وكانت الفكرة صائبة ورضى عنها قلبه وضميره ، ولما عزم على التنفيذ أشار على زوجته فاذا بها ترضى عن اقتراحه ، بل وتهتم به كما لو كان هو غايتها . وما أن وجد الزوج منها ما وجد حتى سافر في نفس اليوم الى الاسكندرية ليحضر عمته كي تأخذ بنفسها الطفلين ، حتى لا يشعرها بشيء مما انعقد عليه العزم بخصوصهما اذا ما بعث بهما اليها . ولما سألته زوجته لماذا هذه العجلة انتحل لها عذرا غير الحقيقة فقد كان يعلم أن غدا هو عيد مولد ابنها وأنه سوف يكون يوما قاسيا على البيت ومن فيه فلعل في تعجيله بالسفر والعودة وابعاد الطفلين في نفس اليوم ما يخفف من حدة آلام الذكرى وكانت هي تظنه غير مدرك لهذا اليوم ، وان هذا اليوم هو مولد ابنها الذي مات من شهرين . ولذلك ما ان خرج الزوج من البيت ، حتى راحت تعد العدة لعيد ميلاد ابنها كما لو كان موجودا ولم يمت . ولما استكملت كل شيء دخلت غرفته في الصباح ترتبها كالعادة . ونظرت الى الهدايا الأربع التي كانت قد جاءت بها اليه في أعياد ميلاده السابقة . وفكرت في أي هدية تأتي بها اليه هذا العام . وارتدت ثوبها الأسود الذي لم تر الا فيه منذ شهرين . وهبطت الى الحديقة ومرت وهي في طريقها على شجرة الورد ووقفت حيالها لحظات ، وراحت بعينيها اللتين لم تفارقهما الدموع تتفحص تلك الوردة البيضاء الكبيرة التي أنبتتها الشجرة هذا العام . وبعد أن تأملتها

طويلا وتحسستها بعينها وقلبها وكل شيء فيها انصرفت الى الطريق ، ومن ثم راحت تطوف على جميع محال اللعب والهدايا تنتقى لابنها واحدة ، الى أن جاءت له بهدية غالية تفوق جميع الهدايا السابقة جمالا ، وثمنا أيضا . ولما عادت الى البيت كان المساء قد أقبل دون أن تفطن بعد .

بيد أنها لم تكد تبلغ البيت وتخترق الحديقة وتسير بضع خطوات حتى وقفت ذاهلة كمن اصابه مس . فقد رأت شجرة الورد ولكنهـــا لم تر الوردة البيضاء الكبيرة على فرعها كما تركتها فى أول النهار .. لابد أن احدا عبث بها . لابد أن الطفلين اللعينين انتهزا فرصة غيابهـــا خارج البيت وقطفا وردةابنها وعبثا بشجرته . وما أن عرفت ذلك حتى انقلبت سحنتها ، وجحظت عيناها جحوظا مخيفا وراحت تركض على غير وعى تدفع هذا الباب ، وتدخل هذه الغرفة ؟ وتصرخ بأعلى صوتها عـلى الطفلين الشقيين ، بيد أنها وهى كذلك رأت شيئا آخر غير الذى رأته . رأت شيئا جن له جنونها . رأت باب غرفة ابنها مفتوحا على مصراعيه ، فوقفت تنظر الى الباب ذاهلة أشبه ما تكون تماما بالهرة المفترسة ، ومن ثم أقبلت على الغرفة فى جنون ما بعده جنون وما أن دخلتهـــا حتى رأت الطفلين الصغيرين يعبثان بسريره ، فنظرت بعينيها الجاحظتين تريد أن تنقض عليهما لتخنقهما بيديها المرتعشتين لتقتلهما أمام عينيها اللتين بلون الدم ، لتميتهما كما مات ابنها . وما أن رآها الطفلان كذلك حتى سقطا على الأرض يرتعشان خوفا ورعبا ، ولما انقضت عليهما لتصعقهما بقدمهـــا فى جنون ، نهض أحدهما وهو الصغير يرتعش وترتعش شفتاه وترتعش أيضا يده وهو يقول لها فى صوت مضطرب :

ـ لا تضربينا يا أماه ، فأنا وأخى نعرف بأن اليوم عيد ميلاد أخينـــا مجدى وهو كان يحب شجرته ، فأخذنا الوردة التى فيها وجئنا بها الى سريره ووضعناها تحت وسادته ، لعلها تذهب اليه فى هذه الليلةمادمنا لا نستطيع نحن أن نذهب اليه .

وما أن ســـمعت الأم ذلك حتى وقفت لحظات لا تدرى هـــل

مرت من حياتها أم لم تمر ، ولا تدرى أيضا هل طالت حتى غدت دهرا أم قصرت حتى كانت كالغمضة . وانما الذى تدريه انها انحنت عليهما وأخذتهما من على الأرض وحملتهما على صدرها تحتضنهما وتقبلهما وكأنها تقبل ابنها تماما ، وبينما هى كذلك رأت من النافذة زوجها ومن خلفه عمته ، وحين رأت ذلك خافت خوفا شـــديدا وراحت تركض بالطفلين هاربة تصرخ وهى تحتويهما فى أحضانها منذرة بأنه ما من قوة فى الوجود تستطيع أن تنتزع من أحضانها الطفلين اللذين علماها درسا فى الحب . وقف حياله صانع الأحزان حائرا ينظر بعينيه الزائغتين الى ذلك النور الذى أشرق فى البيت من جديد وملأه أنسا وابتهاجا .

الذئب

يختلف حال قريتنا في النهار عنه في الليل اختلافا كبيرا • فبينما قريتنا في النهار جميلة رائعة الجمال • يلتف النيل بها حتى ليكاد يعانقها وهو يرسل من حين الى آخر خرير أمواجه ألحانا رائعة عند أعتابها • وتظللها في النهار مزرعة نخيل قرابة الفدانين من الخلف ترسل ظلها الوارف عليها فيقيها في الحر شر الهاجرة وتلطف من حدتها • كما تفد عليها أسراب الطيور والعصافير التي تقبل من الجنوب أيام الحصاد وتحط على سعف النخيل مزقزقة تتناغى وتترنم وترسل أعذب الألحان •• بينما قريتنا في النهار كذلك فهي في الليل كئيبة موحشة أشبه تماما بمقبرة مهجورة ينعق فيها البوم الذي يختبيء فوق النخيل في الظلام • وتعوي الذئاب عواء موحشا كما تنبح الكلاب الضالة نباحا يؤذي السمع • وحين تهب العاصفة من الشمال يختلط ذلك كله بهياج البحر الذي تزأر أمواجه وتتلاطم في صخب وعنف • لذلك كنا عندما يجيء الليل • أو على وجه التحديد بعد صلاة العشاء ندخل بيوتنا ونغلق الأبواب ولا نخرج منها الا في الصباح • حتى الذي كان يريد قضاء أمر خارج الدار يقعده عنه صراخ الموج في الليل أو عواء ذئب في الظلام ، أو نباح كلب ضال في قلب المزرعة •

وكانت هي ليلتئذ في قلب الدار • وتعرف أن هذا كله ينتظر الناس في الخارج • وينتظرهم هذه الليلة بالذات على صورة أكثر بشاعة •• فقد بدأت السماء تمطر • وان أمطرت السماء في قريتنا ليلا فشوارع القرية وأزقتها وهذه المزرعة الكبيرة •• كل ذلك محرم على البشر لا يجرؤ انسان أن يخرج اليه أو حتى يراه لكيلا يمتليء قلبه بالخوف والفزع الذي ترتعد له الفرائص ولكن هي في هذه الليلة بالذات كان لابد لها أن تخرج وأن تلقى بنفسها في هذا الهول الكبير • بل كان لابد لها أن تبحث عنه وتسعى اليه بقدميها ، بل وتتلمس جميع الأماكن التي هي أكثر فزعا ورعبا من غيرها • بل هي من أول هذا اليوم تستعجل

هذا النهار البغيض الذى يملأ قلوب الناس أمنا وطمأنينة ، وتستحث هـذه الشـــمس المشرقة التى تملأ الكون اشراقا ونورا ، وتنتظـــر فى غير ما صبر ولا اناة ذلك الليل الموحش وهـــذا الظلام الكريه ، وان تمطر الغزير الذى يقعد الناس فى بيوتهم فلا يخرجوا منها أبدا وذلك كله لكيلا يراها أحد ، فالقتل كل القتل أن يراها أحد اذا ما خرجت فى الليـل الى قلب المزرعة ، ولذلك عندما فتحت الباب وخرجت في عتمة الليـل سرها أن ترى الظلام أشد سوادا مما كانت تنتظر والسماء أكثر عتمة مما كانت تظن والمطر ينهمر في غزارة كانت لا تنتظرها فتسللت خلسةتتلفت حواليها الى قلب المزرعة ، حاملة على صدرها تلك اللفافة التى تحتوى على أشياء كثيرة ، عدة خرق بالية ممزقة ، بعضها جاف وبعضهـــا لزج تفوح منه رائحة معينة ، وتسيل من بعضها الآخر نقاط تشبه تماما نقاط الدم،وفىقلب هذا كله قطعة من اللحم ، ولكنها على هيئة طفل وله وجه يشبه فى استدارته الهلال الوليد لولا بعض نقاط لزجة من دماء جافة تلوثه ، وله أيضا أنف وله عينان ولكنهما مغلقتان وان كانا من حين لآخر تلتمع فيهما بعض حبات صغيرة من النور ، وله كذلك ثغر دقيق رقيق ولكنه مطبق وان كانت ترف عليه من لحظة الى أخرى نســـمة خفيفة تشبه الأنفاس فيفتر الثغر عن بسمة رقيقـــة ولكنه لا يبتسم لأنه لا يعرف بعد كيف تنشق الشفاه لتبتسم ، وفى قلب اللفافة أشياء أخـرى وضعت مع هذه القطعة من اللحم : سبع حبات من الفول سلكت فىخيط رفيع وعلقت على الصدر وكذلك قطعة سوداء من الفاسوخلصقت على الجبين تتوسطها خرزة تقى الوليد اذا ما لقى فى الطريق ما ينتظره من شر ،

وتسللت بهذا كله وسط النخيل خائفة تتلفت حواليها فلا ترى الا ظلاما وتنظر فوقها فلا ترى الا سماء معتمة ترسل وابلا من المطر الذى ينهمر عليها ويصفع وجهها فى قسوة وعنف ، فتحنو على اللفافةوتضمها الى صدرها وهى تتلمس لها مكانا أمينا ولكنها لم تجد قط هذا المكان ، فهى كلما أملت خيرا فى جذع نخلة كبير ووضـــعت اللفافة بجانبـــه تساقطت عليها نقاط المطر كجمرات من نار ، فتضطر الى أن ترفعهاثانية

وتضمها الى صدرها وتحنو عليها وتبحث لهـــا عن مكان آخر • الى أن وجدت بعد هول كبير مكانا لم تستطع نقاط المطر أن تنفذ اليه • وهـــو قريب من الطريق الذى تـــؤمه الســـــابلة عند الفجر • فاطمأنت وأرسلت نفســـا طويلا أخرجت معه أكثر ما كانت تختزن من خوف وفزع واضطراب كبير • ووضعت اللفافة على الأرض فى رفق وانحنت عليها وكشفت فى رفق عن وجه الطفل وطبعت عليه قبلة طـويلة وهى تبكى • وأحس الطفل بشىء دافىء يسيل على وجهه فابتهج وطرب وهمهم بشفتيه المطبقتين وحاول أن يفتح عينيه ليبتسم ولكن الدموع الغزيرة التى أغرقت وجهه حالت بينه وبين ما يريد • ومدت هى يدهـا اليه وجمعت عليه أطراف تلك الخرق البالية ثم لفته لفا محكما فى قلب اللفافة • ثم نهضت بعد أن قبلته قبلة أخرى • وحاولت أن تسير بيد أن عينها كانت قد تسمرت على وجه الطفل • ولما كان لابد لها أن تسير ، سارت ولكن بظهرها محاولة بذلك أن تخلص نظراتها المستميتة على وجه الطفل الى أن استطاعت ذلك بعد جهد كبير وبعد أن قطعت شوطا كبيرا فى الســير • وقفت مرة أخرى لتلقى نظرة أخيرة على هـــذا كله • واللفافة والخرق البالية • وقطعة اللحم الصغيرة التى فى قلبها • وذلك الوجه الصـــغير الذى به عينين وثغر ولكنه لم يعرف كيف يستعملها • وبعد أن فعلت ذلك وألقت النظرة التى تريد أدارت ظهرها اليه وانصرفت • واضعة يديهـا على عينيها حتى لا تعود تلك العيون وتتعلق باللفافة مرة أخرى • بيـد أنها بعد أن سارت خطوات أحست برغبة شديدة فى أن تلقى على المكان كله نظرة أخيرة • وتودع فيه تلك القطعة من اللحم الى الأبد • بيـــد أنها فجأة وقفت ذاهلة مرتعدة الفرائص تضطرب عيناها اضطرابا شديدا وترسل شررا كأنه حبات من نار الى ذئب ضخم كبير يتسلل بين النخيل فى الظلام قاصدا تلك اللفافة وقطعة اللحم التى فى قلبها • وما أن رأته حتى صرخت صرخة مكتومة فى الظلام وانقذفت بكيانها المرتعش اليـــه تركض خلفه • وبدل أن تخاف هى الذئب الذى تطارده فى الظلام خاف الذئب تلك التى تقبل عليه على هيئة حيوان مسعور مفترس ترســـل عيناها الجاحظتان نارا فى الليل كما يرسل وجهها المربد وســـحنتها

المتحجرة خوفا ورعبا كبيرا ، فهرب سريعا من أمامها ولكن فى لسانه الطويل المدلى وأنيابه الطويلة المدببة رغبة أكيدة فى العودة • ووقفت هى غير بعيدة من اللفافة مختبئة خلف جذع نخلة كبيرة ، خشية أن يعود الذئب ثانية ولما طال وقوفها كثيرا واطمأنت الى أنه لن يعود • انصرفت ولكن من طريق آخر غير الذى كانت تقصده • بيد أن نظرة بعيدة جدا ألقتها بين الأحراج وجذوع النخيل والأعشاب المتكاثفة فى قلب المزرعة • جعلتها تعود الى ذهولها مرة أخرى ولكن على شكل أكثرفزعا وجزعا وعنفا من قبل • فقد رأت الذئب قابعا بجوار اللفافة يكاد يمد ذلك اللسان الطويل وتلك الأنياب المدببة ليفض ما بقلبها • فانقضت عليه سريعا محاولة أن تطرده كما فعلت فى المرة الأولى بيد أنها لم تكد تفعل حتى غم عليها لقد رأت نفرا من أهل القرية تعرفهم جيدا ويعرفونها جيدا فليس فى قريتنا من أحد لا يعرف الآخر معرفة جيدة • وأنهم أمامها عائدون من الحقل فى هذا الوقت من الليل وكادت تسقط أمامهم لولا أنها تماسكت فى مكانها بعد تلك الصرخة التى انفلتت منها من غير قصد • انهم من غير شك سوف يرونها وسوف يرون الطفل الذى تريد أن تنقذه من أنياب الذئب وسوف ينكشف السر الذى كانت تخافه • والذى هو فى قريتنا فتنة أشد من القتل • ولو أن الأمر يتعلق بها وحدها ليسر وهان • ولكن • ولكن أمها المتقدمة فى السن • أبوها الكهل العجوز الذى هو خير شيوخ القرية وأرفعهم قدرا وشرفا وأخلاقا وأخواتها ، اخوانها الأقوياءالأشداء الذين يسيرون فى القرية مرفوعى الرأس غير مطأطئى الهامة أبدا • كل هؤلاء ما مصير مستقبلهم أيضا •• وحانت منها التفاتة فى الظلام فرأت تلك الجماعة من الناس تقترب منها حتى لتكاد تصطدم بها •

وحانت منها التفاتة أخرى فى الليل • فرأت الذئب وكل الذى بين أنيابه واللفافة كالذى بين شفتيها المحترقتين ولفحات النار التى تخرج من بينهما • فصرخت صرخة مدوية فى الظلام وراحت هاربة تركض على

غير هدى .. تتخبط بين الأحراج والأعشاب المتشابكة وجذوع النخيل .
وأسقط فجأة في يد تلك الجماعة فقد حسبوا اللصوص يسلئون المزرعة في الليل
فراحوا يطاردونهم في عنف والفتاة تفر من أمامهم في عنف أيضا .
وكل همها فقط أن تنجو بنفسها من هذا الشر الذى لا ينتظرها وانما
ينتظر أسرتها جميعا . لذلك راحت تركض كالريح تماما . ومن خلفها
تلك الجماعة تصرخ وتنادي وتمعن في الركض خلفها . ولكن المطر
الذى كان ينهمر بغزارة وتصفع نقاطه سعف النخيل في الليل صفعات
مدوية تختلط أصواتها بزمجرة البحر في الليل وعواء الريح في الظلام
كل ذلك قد جعلهم يخطئون أثرها . وحين كانت الجماعة تركض
وتصرخ وتكر وتفر باحثة عن اللص أو اللصوص . كانت الفتاة تركض
شمالا في أقصى سرعتها عائدة الى الدار التى خرجت منها . وقد استغرق
هذا كله وقتا طويلا لم تعرف الفتاة أنه كاد يستغرق الليل كله الا عندما
رن في أذنيها وهي على مقربة من الدار صوت المؤذن يدعو الناس الى
صلاة الفجر وما أن سمعت ذلك وطالعتها واجهة الدار التى تعمل فيها
من بعيد حتى ازدادت جنونا . كما ازدادت سرعة وركضا . وما ان
أقبلت على بابها حتى نسيت أنها تعمل خادمة بها وأن عليها أن تقوم بما
يقوم به الخدم من حذر وهدوء يجنب السادة اقلاقهم ويتيح لهم الهدوء
الذى ينشدون .. بل اقتحمت الباب في عنف شديد جدا . وراحت
تصعد السلم الذى قابلها في عنف شديد جدا أيضا . وما أن بلغت بابا
معينا لغرفة معينة تكاد تكون بعيدة عن غرف الدار جميعا حتى اقتحمته
في عنف شديد . وما أن رأت شابا وسيما غارقا في نومه الهادىء اللذيذ
في قلب الفراش الوثير الذى ينام عليه . حتى ألقت بنفسها القاء عليه .
وأنشبت أصابعها المضطربة المرتعشة في شعره الطويل الناعم وجرجرته
من شعره على الفراش وهي تصرخ في وجهه صرخاتها الجنونية وتنظر
اليه بتلك العيون التى مازالت تقذف شرر النار .. وتصرخ :

ـ ابنك .. ابنك .

وفتح الشاب عينيه نائما فى أول الأمر ثم ذاهلا فى آخر الأمر . يسأل :

ـ ابن من ؟ .

ـ ابنك . ابنك أكله الذئب . أكله الذئب .

واتسعت عينا الشاب وهو ينظر اليها دهشا . ويسألها مرة أخرى :

ـ ابن من ؟

ـ فهزته فى عنف وما زالت تصرخ :

ـ ابنك أنت .. ابنك انت .

وهمت أن تصرخ فى وجهه صرخة أخرى .. وتقول له شيئا آخر . بيد أن لطمة قوية هائلة سقطت فجأة على صدغها الأيسر ونصف رأسها كله فخنقتها وكتمت الصرخات وأغرقتها فى لجة من الدم الذى انبثق وتفجر من فمها ومنخاريها .

ووقفت الفتاة أمامه متحجرة النظرات لا تطرف ولا تجيب واضعة يدها على ثغرها ومنخاريها . ثم خرجت من الغرفة محاولة أن تجفف تلك الدماء . بيد أنها لم تستطع أن تمنع الخيوط الحمراء القانية التى تسللت وسالت مختلطة ببعض نقاط جافة من دماء قديمة كانت لاتزال على الصدر . وظلت تسير صامتة .. وغادرت الغرفة صامتة .. ومن ثم هبطت السلم وغادرت البيت صامتة .. وكذلك غادرت القرية ومزرعة النخيل صامتة أيضا . بيد أنها وقفت فجأة عند مكان معين بالذات . وراحت تنظر فى هدوء الى جذع نخلة كبيرة . ولفافة ممزقة . وعدة خرق بالية ملوثة بالدماء .. وبجوارها عظام جمجمة لطفل وليد .

ذات ربيع

كانت تقبل كل صباح وفى وقت محـــدد بالذات ، وتجلس الى طاولة معينـة تطل على البحـــر من احـــدى شرفات حلوانى اثنيوس بالاسكندرية ، وتجلس هادئة ساكنة الحركة • كل شىء فيها صـامت لا ينبس ، نائم لا يستيقظ ، أشبه ما يكون تماما بشىء محترق •• شىء ذاق الوجود وذاق العذاب وذاق الهنـــاء وذاق النار ، ثم احترق ولفظ كل عذاباته وهناءاته أيضا ، وأصبح وجوده بالنسبة اليها منتهيا ، وان كان بالنســـبة اليك غير ذلك ، لأنك مازلت تراه • وكانت تظل كل يوم من العاشرة صباحا الى الواحدة بعد الظهر فى هذا الصمت المطبق وهـذه الحركة الخرساء ، تنظر حينا الى زرقة البحر ، وكأنها تبحث بنظراتهـا الساهمة عن شىء فى أغواره ، وكان يخيل الى ، فى كثير من الأحيـان أنها وجدته لأن عينيها كانتا تستقران على صفحة الماء وتثبتان فى غيرتحول ولا تلفت ولا ملل ، وكثيرا ما خالجنى وهمى بأننى أرى عمق الماء نفسه مع عمق هذه النظرة •• وحينا آخر تتحسس العين وردة بيضاء فى يدها ذات لون غريب بين الزهور ، فان بياضها يلفت النظر ويسترعى الانتبـاه ويميزها عن سائر اخواتها فى دنيا الأزاهير •

كانت هذه الزهرة هى المتعة الوحيدة لعينها طوال الساعات الثلاث التى تجلسها الى الشرفة المطلة على البحر •• كانت تنظر اليها وتتفحصها بعينيها الواسعتين الجميلتين ، وتمعن فى النظر اليها ، حتى لكأنها تتعمق قلبها وتتحسسه بعينيها ، وكأن هذا كان يطربها ويثلج صدرها ، لأننى كنت وأنا أرقبها من بعيد ، أرى أساريرها تنفرج رويدا رويدا ، ووجههـا الفاتن يستعيد بهجته • وكثيرا ماكانت تبتسم فى ابتهاج فياض وهى تلم شتات تلك النظرة من أوراق الوردة وأفوافهـا ، فعجبت لهذه النفـوس الرقيقة ، وكيف لا يستهويها الا كل ماهو رقيق مثلها • وكنت فى ذلك الحين أراها كل يوم تقريبا ، لأننى كنت بحكم عملى ، أتردد على هـذا المكان يوميا ، وأكاد أجلس تماما الى الطاولة التى تقع فى مواجهتهـا ،

فقد كنت أشتغل سكرتيرا خاصا لأحد الوزراء السابقين ، وكان من رواد أثنيوس ، وقد ظل على ما أذكر من رواده حتى الآن . فكنت أذهب اليه كل صباح ، وأجلس قبالته لأقرأ له جميع صحف الصباح والمجلات وأعلق له على جميع الأخبار الخاصة بالحزب وغير الحزب ، والسياسة والاعلانات والوفيات ، ثم يتضح بعد ساعتين من القراءة أن معاليه يغط في نوم عميق .

وحدث ذات صباح أن كنت أخترق محطة الرمل في طريقي الى اثنيوس ، فاسترعى نظرى عند بائع ورد في الميدان ، باقة جميلة من زهرة الكلير الناصعة البياض ، فتذكرت في الحال تلك الغادة التى تحب هذه الزهرة ، ووجدتنى وبلا تفكير أشترى منها عدة زهرات حملتها في يدى وانصرفت ، وكان معالى الباشا لم يحضر بعد ، فجلست أنتظره وأنا أختلس من بعيد نظرة الى السيدة التى رأيتها في مكانها وفي جلستها تتحسس الزهرة حينا وتتعمق زرقة البحر حينا آخر . وكانت لم ترنى بعد ولم تفطن لوجودى وهى كثيرا لا ترى أحدا ولاتفطن لوجود أحد بيد أنها في هذه المرة رأتنى وهى تلقى بنظرة عابرة ، وعندما همت أن تحول نظرتها عنى لمحت مصادفة الزهرة في يدى . وما أن رأتها ووقعت عينها عليها حتى أرجعت بصرها الى سريعا ، وكأنها استقرت على الزهرة التى في يدى ورأيت فجأة أساريرها تتفتح ؟ وثغرها يفتر شيئا فشيئا حتى تحول الى بسمة من نور تشبه في صفائها صفاء الزهرة التى في يد كل منا ، واذا بها أيضا ، وفجأة وبلا مقدمات ، تحيينى وفي الابتسامة العذبة التى انطبعت على شفتيها الحلوتين وتقول في لكنة عربية محببة جدا:

ـ صباح الخير .

فارتبكت وتلعثمت وارتعشت شفتاى ، وهذا هو حالى دائما عند اللقاء الأول ، أو الحديث الأول ، أو حتى الابتسامة الأولى ، الا أننى ، برغم ذلك كله ، رددت عليها التحية سريعا وبأحسن منها ، وكأن هذا سرها ، لأنها نظرت الى في طرب وقالت على الفور وخيال عينيها يداعب الزهرة التى في يدى :

ــ اذا كنت لا أضايقك فانه يسعدنى أن تشرب قهوتك معى .

قالت ذلك وهى تشير الى مائدتها والمقعد الخالى أمامهـــا ، فازداد ارتباكى وتعالت دقات قلبى سريعا ، ولكنى تجاهلت وجيب القلب وكتمت ضرباته وحاولت أن أتغلب عليه حتى لا يفتضح أمرى ، لأن التجارب علمتنى أن الفرحة المباغتة تفعل بالقلب ما تفعله تماما الصدمة العنيفة .

ونهضت اليها سريعا شاكرا لها هذا العطف أو التنازل الكبير ، ومددت لهـــا يدى بعد أن بذلت الجهد فى اخفاء رعشتها ، فمدت الى يدا بضـــة رخصة الأنامل حلوة اللمس تكاد رقتها تشبه تماما رقة الزهرة التى بين أنامل يدها الثانية ، وصافحتنى وهممت أن أجلس ، غير أننى لمحت من بعيد معالى الوزير السابق يقبل على مهل بجثته الضخمة وكرشه الكبـير فأسقط فى يدى ، وتركتها وانصرفت سريعا الى المائدة المخصصة لمعاليـه دائما ، وجلست اليها أنتظره ، وعزائى الوحيد أنه لم يرنى ، لأن نظر معاليه كان ضعيفا ، وكان هذا يسبب لى متاعب كثيرة ، ولكن كنت أحتملها لأن لها بعض المحاسن ، كهذه الحسنة ، وأقبل معاليه وجلس الى مقعده الوثير ونزع طربوشه الطويل وناوله لى لأضعه أمامه على المائدة ، ثم رجع بظهره الى الخلف وصمت بعض الوقت وكنت بطبيعة الحال أصمت اذا صمت ، وأتكلم اذا تكلم . ثم قطع صمته وقال فجأة ، وهو « يبربش » بعينيه الضيقتين من خلف منظاره الأخضر الكبير :

ــ هذه المرأة التى تجلس أمامنا ، تنظر الينا من حين الى آخر . من هى ؟

فاضطربت جدا ، لأنها كانت تنظر الينا فعلا . وقلت :

ــ انها تنظر الى معاليك ولا شك .

فابتهج وقال وهو يتحسس بيده الناعمة شاربه الطويل الذى كان يعنى به عناية فائقة :

ــ وهل تعرف من أنا ؟

ـ من غير شك ، فصور معاليك كثيرا ما زينت صدر أمهات الصحف .

فازدادت الابتسامة التي أنارت وجهه وقال :

ـ ولكنى الآن خارج الوزارة .

ـ ولكن غدا ستدخلها باذن الله . لقد بلغنى أن الأزمة الوزارية قد استحكمت حلقاتها والحمد لله ، وأن القصر سوف يقيلها خلال أيام .

فتهلل وجه معاليه ، وقال وهوينظر الى مجموعةالصحف والمجلات التى أمامنا :

ـ اقرأ ، اقرأ . ما الأخبار اليوم ؟ .

وبدأت أقرأ ، وبدأ هو ينام ، الى أن انتهيت من قراءة الصحف جميعا كالمعتاد ، وهم معاليه بالانصراف وشيء من الغضب يبدو على وجهه ، لأن أخبار الصحف لم يكن فيها ما يطمئنه الى اقالة الوزارة كما قلت . وعند الباب الخارجى ركب سيارته وانصرف ، وعدت أنا سريعا الى المائدة ، فرأيتها لا تزال تجلس اليها ، وجلست معها ، وبدأنا الحديث فقالت ومعالم البشر ترتسم على وجهها :

ـ من هذا الرجل الضخم الذى لا يجيء هنا الا لينام ؟ .

وكنت أظنها تعرفه ، فقلت انه فلان وذكرت اسمه فقط ..

ـ ماذا يعمل ؟ .

ـ وزير سابق .

فقالت ضاحكة وهى تعاود النظر فى سرور الى الزهرة التى فى يدها :

ـ ظننته كل شيء الا هذا .

فضحكت وغيرنا الحديث الى أن قالت وهى ما تزال تنظر الى الزهرة وتتأملها :

ـ هل تحمل هذه الزهرة لأنك تحبها ، أو أنك أحببتها من أجلى .. كن صريحا معى ؟ .

فارتبكت لأن الجواب فيه حرج كبير ، وغير مأمون العاقبة ، فاذا قلت لها اننى أحبها أصلا ، فربما لا يبهجها ذلك بقدر ما يبهجها اننى أحبها من أجلها ، واذا قلت لها ذلك ، فقد يضايقها هذا الغزل الجرىء ، لكن التجارب علمتنى أنه من الخير ألا أدع هذه الفرصة تفلت من يدى، ولذلك صمت قليلا ثم قلت :

ـ أيهما يكون أكثر ارضاء لك من الآخر ؟ .

ـ اننى أسألك ؟ .

فازداد الموقف تحرجا بالنسبة لى ، ولكنى أمسكت بالخيط من الوسط وقلت :

ـ الحقيقة أنا أحب أصلاهذه الزهرة ولاأحب من الزهور سواها ولذلك سرنى كثيرا جدا أن يكون هذا الحب متبادلا بيننا .

ـ منذ متى أحببت هذه الزهرة ؟ .

فنظرت الى عينيها الجميلتين وقلت :

ـ منذ أن عرفت قيمة الزهور .

فابتسمت وهى تقول ناظرة الى :

ـ هذا خبث جميل منك .

وسادت فترة صمت بيننا ، قطعتها أنا فى التأمل الى صفاء عينيها وعمق نظرتها ، وقطعتها هى فى النظر الى الزهرةفىيدها تتحسسها وكأنها تنظر الى قلبها وتستمع دقاته وتقرأ أحاسيسه ، الى أن قلت وأنا أتعمد أن أضحك :

ـ منذ متى تحبين هذه الزهرة ؟ .

ـ منذ رأيتها •

فقلت ، وأنا أدعو الله مخلصـــا أن يجنبني في هذه اللحظة بالذات أزمات الغباء التي أقع فيها في مثل هــــذه المناسبات ، وأن يحل عقدة لساني :

ـ أتعرفين أنني الآن عرفت شيئا ظل يحيرني عدة سنوات ؟ •

ـ ماهو ؟ •

ـ هذه الزهرة •• انني أعرف أن أي شيء لا يوجد الا لسبب •• جميع الزهور مثلا ، خلقت لأكثر من فائدة •• عطرها •• رائحتها •• طعمها •• حتى التي لا طعم لها ولا رائحة ، تكون غذاء شهيا للنحل الذي نأكل منه الشهد ، أما هذه الزهرة بالذات ؟ على ما عرفت ، فلا عطر فيهـا ولا طعم ولا رائحة • وهي من الزهور الســـامة التي تميت النحل ان ذاقها •

وما أن وصلت الى هذه النقطة حتى تجهم وجهها فجأة ، واربدت سحنتها ونظرت الى نظرة غير التي كانت تحبوني بها من لحظة • فأسقط في يدي ، وعرفت أنني « لبخت » وأن الغباء الذي كنت أدعو الله أن يبعده عني ، أصابني وباؤه ، كأنما كنت أدعوه أن يهبه لي ، ومما زاد الطين بلة أنها قالت وهي تنحي وجهها كله عني :

ـ أكمل ، وبعد ؟ •

فتعالت دقات قلبي ولكنني قلت مستطردا :

ـ ولذلك ظللت أسأل نفسي عدة أسئلة ••

لماذا خلقت هذه الزهرة ؟ ••• ولماذا أنا أحبها كل هذا الحب • ؟ الى أن اهتديت اليوم فقط الى الاجابة الصحيحة ، فاذا بها خلقت لأسـمى ما خلق له شيء في الوجود •

ـ ما هو ؟ •

ـ لتجمع بين القلوب ، وتؤلف بين المحبين •

فعاد البشر سريعا الى وجهها ، وقالت وهى تنظر الى نظرة تماثل صفاء الزهرة تماما :

ـ ألم أقل لك إنك خبيث ؟ .

فحمدت الله اذ أنقذنى فى آخر لحظة . وانصرفنا بعد أن تواعدنا على اللقاء الثانى ... وفى اللقاء الثـــانى توطدت علاقتنا الى حد كبير ما كنت لأتصور أن تتم بهـــذه السرعة . كانت « أنا » وهذا هو اسمها سويسرية الأصل ، ولكنها ولدت فى الاسكندرية وظلت تعيش فيهـــا وحيدة . انها تقطن بمفردها فى شقة أنيقة للغاية فى حـــى الشاطبى . هذا ما اســـتطعت أن أعرفه عنه ، فهى حريصـــة على ألا يتدخل أحد فى شئونها ، ولما توطدت علاقتى بها اتفقت معى على أن نلتقى مرة واحدة فى الاسبوع ، وأن يكون اللقاء عندها فى البيت ، وأن يبدأ من الخامسة بعد الظهر وينتهى فى السابعة من صباح اليوم الثانى ، ومازلت أذكر هذا اللقاء الذى لا يمكن أن تحسب لحظاته من العمر ، ويوم دخولى بيتهـا لاول مرة ، ذلك البيت الجميل الهادىء ، رأيت كل مافيه يشبه رقـــة زهرة الكلير التى كانت سبب تعارفنا ، ثم ان هذه الزهرة تكاد تكون هى كل مافى البيت .. ما من ستارة الا وعليها رسم هذه الزهرة ، وما من مفرش الا وهو مزين برسمها حتى غرفة النوم ، فانك ترى الزهرة فى كل مكان فيها ، على الحائط . على الوسادة . على ملاءة السرير . على الكومودينو . على الروب الذى ترتديه . على القميص الرقيـــق الذى ينساب على جسدها الأملس ، وكنت أنا أنظر الى هذا كله لا أزداد الا دهشة ، وكانت هذه الدهشة تزداد كلما ذكرت اتفاق الجنتلمان الذى تم بيننا ، وهو أننى لا أحاول أن أعرف عنها شيئا أكثر مما عرفت ؟ ولا أحاول أن أراها طيلة الأسبوع الا فى هذه الليلة التى كانت تطلق عليها «ليلة الكلير» وأيضا ، وهذا هو أهم مافى الاتفاق عندها ، ألا أحاول بأية حال ، أن أقدم لها شيئا نظير هذا اللقاء ، وان فعلت فلن يكون بيننا لقاء .

. أما الذى كانت تصر عليه وتفرح به فرحة الطفل بلعبة غالية ، فهو أن أقدم لها كل أسبوع باقة من زهرة الكلير التى تحبها ، ومازلت

أذكر حتى الآن ، بكل وضوح ، تلك الفرحة التى كانت تنبثق من عينيها عندما أدق الجرس وتفتح لى الباب فترى الباقة فى يدى .. ان وجهها يتهلل ، وكل شيء فيهـــا يهتز ويرقص ، وتهرع الى طروبا كطفلة ، وتقبلنى فى فرحة غامرة ، وتلتقط البـــاقة من يدى وتدفن وجهها بين أوراقها الناعمة وتروح تقبلها بنهم عجيب . ومع أن هذا كان يدهشنى كثيرا فانه كان يطربنى الى حد كبير ، لأننى كنت أعتقد فى قرارة نفسى أننى انما أقدم لها فعلا شيئا تحبه ، بل يكاد يعوضها عن كل ماتقدمه لى طيلة ليلة كاملة ، ولذلك كنت قبل يوم الثلاثاء بيومين ، وهو يوم الهنـــاء الاسبوعى ، أذهب الى بائع الزهور الذى تعودت أن أشترى منه هـــذه الزهور لأطمئن عليها وعلى تنسيقها ، وكان هذا هو أهم ما أعنى به طوال الأسبوع تقريبا .

الى أن حدث ذات يوم ، أن استحكمت الأزمة الوزارية فعلا ، وراح الأمل العريض يدب فى قلب معالى الوزير السابق ، فأقلع عن الذهاب الى أثنيوس ، وجلس فى قصره الكبير فى فكتوريا يستقبل وفـــود الزائرين الذين أقبلوا لتهنئة معالى الوزير المقبل فشغلت ،لهذا السبب ، عن المرور على بائع الزهور قبل يوم الثلاثاء كالمعتاد ، وذهبت فى عصر اليوم نفسه فاذا بى أرى مفاجأة كادت تذهلنى ، وهى أن هذه الزهرة لا وجود لها فى مدينة الاسكندرية منذ ثلاثة أيام ، ومن العبث أن أبحث عنها عند أى بائع آخر ... ووقفت حائرا ، أكاد أسقط من فرط ما انتابنى من ألم واضطراب فلا أنا بقادر على أن أحرم نفسى متعة العمـــر التى يتيحها لى القدر مرة فى الأسبوع ولا أنا بقادر على أن أذهب الى « أنا » من غير هذه الزهور التى هى كل سعادتنا فى الدنيا . ولما رأى بائع الزهور حيرتى البـــالغة أخبرنى أن أضرب بآخر سهم وأذهب الى بائع زهور معين ذكر لى عنوانه فى اسبورتنج وان لم أجد هذه الزهرة فمن العبث أن أفكر فى الحصول عليها الليلة أو حتى غدا .. وذهبت الى اسبورتنج ، وكل رجائى أن يحقق الله آمالى ، ولكننى رجعت حزينا مهموما خالى الوفاض ، وكان المساء قد حان ، فرحت أسب وأسخط وألعن السياسة والوزارة والوزير

السابق والوزير اللاحق فلولا هذا لكنت قد تصرفت واتيت بهذه الزهرة من بلاد واق الواق ولو دفعت حياتى ثمنا لها •

وبينما أنا على هذه الحال أحمل أحزان الدنيا فوق رأسي ، تصدف أن حانت مني التفاتة ، وكان الترام الذى اركبه يمر بمقابر الشـــاطبى ، فرأيت مقبرة ما ، وبجوارها فى اناء أخضر اللون باقة يانعة من زهـــرة الكلير ، وما أن رأيت ذلك حتى واتتنى فكرة ، والى اليوم لا أدرى كيف واتتنى ، ولا كيف تجرأت على تنفيذها بسرعة ودون تفكير ، فقد هبطت من الترام على عجل ورحت أبحث عن أى بائع زهور مجاور فى الشاطبى ، واشتريت منه كمية وافرة من الزهور ، وانصرفت الى المقبرة •

وهناك اصطنعت الحزن والبكاء ، ثم ناولت الحارس قدرا كبيرا من النقود ، حتى دخلت الى المقبرة ، ووقفت على ذلك القبر المعين بالذات ورحت أنثر عليه الزهور التى معى وأنسق بعض الزهور التى على القبر ، ثم انصرفت وأنا أحمل تلك الباقة الجميلة الناصعة البياض ، وذهبت بها الى بائع زهور آخر نسقها لى من جديد ، وزينها حتى أحالها الى باقـة جديدة يانعة ، كأنها قطفت للحظتها ، ولم أكد أرى الباقة على هذه الصورة حتى دبت الفرحة فى قلبى ، وحملتها على صدرى وكأننى أحمل سعادة الدنيا كلها ، وذهبت الى منزل « أنا » وأنا أشكر الله الذى لم يتخل عنى، ومددت يدى التى كان يخيل لى أنها ترقص من الفرحة كما يرقص قلبى تماما ، ودققت الجرس ، وما أن فتحت لى « أنا » الباب سريعا كمـــا تعودت أن تفتحه فى كل مرة ، ورأت البـــاقة فى يدى ، حتى انطفأت ابتسامتها فى سرعة البرق ، وزوت ما بين حاجبيها ، وقالت على الفور وقد انقلبت سحنتها الى شىء مخيف :

ـ من أين أتيت بهذه الباقة ؟ •

فدهشت ولكننى قلت فيمـــا يشبه الزهو • وأنا أخطو خطوة الى الداخل :

ـ من عند بائع الزهور كالعادة •

فصرخت صرخة مازالت نبراتها الملتهبة تحرق أذني الى اليوم :

ـ أنطق .. من أين أتيت بهذه الباقة ؟ .

قلت : من عند بائع الزهور .

ـ هذه الزهرة لا وجود لها في المدينة بأسرها من يومين .. فمن أين أتيت بها ؟ .

فتوجست خيفة . ولم أنطق ، ولكنها لم تمهلني ، وانما رفعت يدها في عصبية حادة وصفعتني على وجهي صفعة موجعة ، ثم ارتمت على المقعد الذي كان بجانبها تلهث وتنشج كحيوان جريح . وكل الذي استطاعت أذني أن تلتقطه وتسمعه من خلال نشيجها المتقطع ، وهي مجمدة على المقعد تتلوى وتئن ، هو أن هذه الباقة التي جئت بها اليها ، هي ذاتها التي وضعتها بيدها على قبر حبيبها ، فقد كان حبيبها الراحل يحب هذه الزهور ولاتزال تحبها الى اليوم من أجله .

أنفلونزا

قال بعد صمت طويل ، وكنا نسير معا فى الطريق :

ـ هل فى استطاعتك أن تدلنى على طبيب ممتاز ؟

ـ لماذا ؟

ـ أريد أن أسأله عن شيئين هامين ،

وظننته يقول عن دواءين فقلت :

ـ لماذا الطبيب ، اذهب الى أجزاخانة ، واسأل أى صيدلى

فنظر الى وقال فى ضيق :

ـ وما دخل الصيدلى فيما أريد ؟

ـ انه هو الذى يصنع الدواء ،

ـ أى دواء ؟

ولما عرفت اننى أخطأت الفهم اعتذرت له وسألته :

ـ فى أى شىء تريد أن تسأل حتى نبحث عن طبيب أخصائى ؟

فقال وهو ينظر الى الأرض ، وكأنه يبحث عن شىء افتقده :

ـ أريد أن أسأل أيهما أكثر نفعـــا للصحة ، هل أتغطى وأترك النافذة مفتوحة أو أغلق النافذة وأنام من غير غطاء ؟

فدق قلبى سريعا . وتوجست خيفة . ونظرت الى عينيه المحمرتين . ووجهه الغارق فى الاصفرار ، وقلت وأنا أستعرض سريعا بعض خطاباته الى ، وأيضا بعض تصرفاته منذ اللحظة التى وفد على فيها ، فقد كان لا يزال يقيم فى دمنهور حيث كنت أقيم معه فيما مضى ، وكان يتردد على فى القاهرة من حين الى آخر ، جمعت هذا كله فى خيط واحد ، وعقدته على شىء وقلت وأنا أضطرب :

ـ وأنت ماذا تريد ؟

فلم يجب وانما ظل في صمته المطبق . وظلت عينه في مكانها عند قدميه تبحث عن ذلك المجهول . وكلما وجدته أو كادت تظفر به افتقدته ثانية في لجة ذلك الاحمرار الذى تتخبط فيه نظراته . وظل كذلك الى حين . ثم بذل جهدا كبيرا حتى حرك شفتيه وقال وكأنه يخاطب شخصا غيرى :

ـ وهل ينال المرء مايريد ؟

فاطمأن قلبى الى سلامة هذا القول وتبددت بعض مخاوفى وعرفت أن الأمر لا يخرج عن كرب يعانيه ... فقلت على الفور :

ـ اذا خلصت النية ، وقويت العزيمة ؛ وتحملت النفس مشاق الصعاب .

فافتر ثغره وقاطعنى قائلا :

ـ ماذا يحدث ؟ ـ لابد أن يصل . ـ لابد ! .. ـ لابد ..

فاستطالت الابتسامة التى على ثغره حتى أنارت الوجه كله وقال فرحا :

ـ أمتيقن أنت مما تقول ؟

ـ كل التيقن ...

ـ اضرب مثلا ...

ـ الأنبياء والرسل .. والأبطال . وأولو العزم جميعا ..

ـ دعنا من هؤلاء الذين لم نرهم الا في الكتب والروايات .. اننى أسألك عن نفسك ... ألم تفشل قط في نيل شيء أردته ؟

ـ كان يتضح لى دائما بعد الفشل أن عزيمتى كانت غير جادة فيما أريد أنا .

ـ وهل أنت شيء وعزيمتك شيء آخر ..؟

ـ من غير شك ... ؟

ـ كيف .. ؟

ـ العزيمة لا تشهر سيفها الا دفاعا عن القلب .

فزالت الابتسامة التى على وجهه وقال مقطبا فى ضيق :

ـ وهل الانسان غير قلبه ؟

ـ مثلا . انك تفكر فى الثراء شىء ... وانك تفكر فى الحصول على قوت يومك شىء آخر .

فتطلق وجهه بعض الشىء وقال :

ـ وماذا أيضا ؟

ـ وانك ترى امرأة جميلة فتشتهيها وتريد الحصول على جسدها شىء .. وانك تحبها وتريد الحصول على قلبها شىء آخر .

فصرخ على الفور وهو يغرس أصابعه فى كتفى فرحا ويقول :

ـ اذن سوف أصل الى ما أريد .

وكنت تواقا جدا الى معرفة خبيئته فقلت على الفور لكى أختلس سره دون أن ينطق :

ـ وما الذى تريد ؟

ـ ان أتحقق أيهما أصح .. ان أتغطى وأترك النافذة مفتوحة . أم أغلق النافذة وأنا من غير غطاء .

واختلست نظرة اليه وأنا أسير بجانبه . فرأيت بعض الدموع تروح وتجىء فى عينيه . وكنت أعرف أن الرجل اذا بكى أصبح من السهل عليه أن يشكو ولاسيما اذا تجاهلت أحزانه وحاولت أن تخرج به عن محيطها . ولذلك رحت أتحدث اليه فى أشياء بعيدة جدا عن نفسه ، تحدثت اليه عن دمنهور وأهل دمنهور . وذكرياتنا فيها . وشبابنا الذى سفكنا دمه على أرضها . وخرقنا شمعته فى ربوعها . فكان لا يجيب الا نادرا . الى أن قال فجأة وهو ينظر الى الأرض ويبحث عن ذلك الشىء الذى افتقده عند قدميه :

ـ هل جربت الحب ؟

فأمسكت سريعا بطرف الخيط وقلت :

ـ أجل • ومن لم يحب لم يعش •

ـ وما رأيك فيه ؟

فنظرت الى آثار الدموع التى فى عينيه وقلت :

ـ أجمل ما فيه تلك الدموع التى تذرفها بين يدى الحبيب •

ـ وان لم يوجد الحبيب • ؟

فدق قلبى ثانية ، وتعالت دقاته وأنا أنظر الى تلك اللجة الحمراء التى تصطرع فى عينيه وقلت :

ـ تقصد اذا تجنى الحبيب ، أو هجر •

ـ أقصد اذا كان لا وجود له أصلا •

فتحققت مخاوفى على الفور وقلت فى خوف شديد

ـ هذا هو أسمى درجات الحب •

ـ اذن أنت تؤمن بالحب الذى لا وجود له •••

ـ كل الايمان •

فنظر الى بعينيه المحمرتين وقال :

ـ وكيف تؤمن بشىء لا وجود له ؟

فأسقط فى يدى وارتبكت جدا ولكنى قلت :

ـ يكفى أن أومن أنا بوجوده •

ـ وماذا تسمى هذا الحب ؟

ـ الجنو •••

وكدت أتم الكلمة ولكنى تداركت سريعا وأمسكت شفتى ـ كدت أقطعها • ثم قلت بعد أن أخذت نفسى :

ـ يسمونه •• يسمونه •• الحب من طرف واحد •

ـ أتعرف أنه أشقى ألوان الحب •

ـ من غير شك •

ـ وأن صاحبه مصاب بمرض خطير •

ـ مرض عضال •

ـ وأن مرارته لا تحتمل • وقسوة أوجاعه لا يحتملها الا قلة من البشر هى التى خلق العذاب فى هذه الدنيا من أجلها •

ـ أعرف ••• أعرف •

فعلت ثغره ابتسامة وأخرج علبة السجائر وأشعل واحدة وتركها بين شفتيه تتقد جمرتها فى الظلام كما تتقد تماما الجمرة التى فى عينيه • وقال :

ـ ولكن ما رأيك فى هذا المرض على مافيه من بشاعة هو أيضـــا والحق يقال • جميل رائع الجمال الى حـــد لو أنك شفيت منه ، تاقت نفسك الى الاصابة به مرة أخرى • لأنه يجعلك طول أيام المرض تعيش فى دنيا غير دنياك • دنيا فيها من خصـــب الخيال وعذب الأمانى • وروائع الاحلام ، ما يجعلك تتذوق هناءات الكون جميعه لأنك فى هذه الحالة سوف تعيش فى السعادة التى تريدها أنت لنفسك • لا التى يريدها لك الغير • قال ذلك ثم نظر الى وقال وما زالت الابتسامة على ثغره :

ـ ما رأيك فى هذا القول ؟

فقلت :

ـ هذا معقول جدا •••

فقال ولكن بعد أن ضمت قليلا :

ـ أما ذلك الحب الذى تعرفونه أنتم ، وهو الحب المتبـــادل بين الحبيبين ، فهو مرير كالحقيقة ذاتها ، لأنه هو نفسه حقيقة لا تستطيع أن تهرب منها • فهى ان غضبت فأنت حزين • لأنك لا تستطيع أن تنكر أنها

غضبت . وهي ان هجرت فأنت كلك أحزان لأنك لا تستطيع أن تنكر وحدتك ...

وكان هذا الحديث أعجبني منه فرحت أصغى اليه باهتمام وراح هو يسترسل دون توقف ويقول :

ـ ولهذا فأنا سعيد كل السعادة بهذا المرض الذى أصابنى وكثيرا ما كنت اذا جاءت المصادفة لكى أسترعى نظرها الى ذلك العاشق الولهان ، وهذا الصب المتيم ، أهرب سريعا من هذه المصادفة المواتية التى تريد بى الشر ، وأفضل الخيال الذى أعيش فيه على الحقيقة التى يكون فيها موتى .

وأخرج سيجارة أخرى وأشعلها وأبقاها بين شفتيه وواصل حديثه :

ـ وقد ظللت زمنا أهرب من هذه الصدفة قاتلها الله ، الى أن جاء القدر يوما ، وأرغمنى عليها ارغاما ، وأوقعنى ولست أدرى الى الآن هل فى الشر الذى كنت أهرب منه أو فى الخير الذى كنت أرتجيه ؟

فقد كنت ذات ليلة فى السينما .. والذى حدث فى تلك الليلة أننى ضقت بكل الاوقات الضائعة التى تسبق العرض . فنهضت خارجا واذا بها أمامى تقبل وتتهادى سكرى تترنح أعضاؤها جمالا وفتنة . واذا بعينى فى عينها . واذا بها تبتسم ... أجل والله العظيم تبتسم .. واذا بى أتجمد فى مكانى وأجلس ثانية سريعا جدا يدق قلبى من الفرح دقات كنت أخشى أن تفضحنى اذا سمعها من بجوارى وابتدأ العرض ؛ وظفرت منها بابتسامة أخرى . وهذه الابتسامة الاخيرة هى التى جعلتنى حتى هذه اللحظة لا أعرف هل عرض الفيلم أو لم يعرض ؟ هل شاهدت شيئا على الشاشة أو لم أشاهد ؟ وكل الذى أذكره أننى رأيت نفسى بعد العرض أسير خلفها فى الطريق ، وليس هذا تعمدا ، فقد كان طريقها وبيتها فى الحى الذى أنا فيه وقد زادت فى الطريق على الابتسامتين ـ زادها الله جمالا فوق جمالها وفتنة فوق فتنتها ـ انها عندما قرب بيتى وكانت تعلم أنى أسير خلفها التفتت الى الخلف بحجة أنها تحادث خادمتها التى تسير خلفها وحيتنى فى ابتسامة ثالثة منورة التقطها قلبى سريعا وطبع نورها على صفحته. ثم انصرفت الى بيتها . وانصرفت أنا الى بيتى .

ودخلت ليلتها غرفتي المتواضعة وتكاد قدمي من شدة الفرحة تتعثر بي في كل خطوة • وأشعلت المصباح الزجاجي ـ لمبة نمرة ٥ ـ ومازلت أحتفظ بها الى اليوم لانها كانت دائما تلوح لى بين أكداس الكتب المبعثرة فوق المائدة وتحتها أشبه بنصف مئذنة قائمة بين الاطلال •

وبينما أنا كذلك سمعت صوت نافذة تفتح ويدوى صوتها في الليل • فصدقت كل شيء الا الذى تبادر الى ذهنى • وهو أنها فتحت نافذتها التى تطل على • وما أن فتحت نافذتى وتحققت من ذلك ورأيتها فى نافذةالمطبخ التى كانت أقرب نوافذ بيتها الى نافذتى • حتى وقفت أرقص طربا • وأتأملها وهى تتناول شيئا فى طبق وتقف فى النافذة وتأكل منه •

وتبادرت الى ذهنى فى الحال فكرة صائبة وهى أن أسرع الى اطفاء المصباح ولا سيما بعد أن تحققت هى من وقوفى فى النافذة • حتى لايلفت وقوفى انتباه أحد غيرها • مع أن الوقت كان بعد الثالثة صباحا ، وقد سرنى أنها استصوبت هى أيضا هذه الفكرة لأنها أطفأت هى الأخرى نور المطبخ ووقفت فى النافذة تأكل من ذلك الشيء الذى فى يدها •

ووقفت أنا أمامها فى الليـــــل أتأمل كل شيء فيها ••• القميص الابيض الهفهاف الذى ترتديه • والشعر الكستنائى اللامع الذى تهدلت خصلاته الفاحمة على الكتفين والصدر ، والقمر الذى يصب ضحكاته فوق أمواج الشعر ونقاطه الفضية التى تنطبع على الصدر •••

ورأيت ذلك كلهوكأننى أراه لأولمرة • فرحتأتأمله دون وعى • ودون وعى أيضا أرسلت لها بيدى قبلة فى الظلام فلم ترسلها لى بيدهـــا كما فعلت وانما أرسلتها لى بشفتيها مع ابتسامة حلوة اختلط نورها بنور القمر المشع ، فجاءتنى سريعا كما يجيئك صوت المحب سريعا يسرى فى أســـلاك التليفون وظللت كذلك الى أن خدرت قدمى من طول الوقوف • فأدركت الزمن الطويل الذى مر بنا • ورأيت بشائر الفجر تلوح فترتد أمامها كتائب الظلام ، وعند ذلك شعرت بضيق شديد وحرج لا حد له لأننى سببت لها كل هذه المتاعب • وأردت أن أريحها لكى تســـتريح • ولكن ماذا أعمل • هل أغلق نافذتى وهي لا تزال فى نافذتها واقفة ؟ هل

أظل كذلك وأزيد من متاعبها ؟ لقد أوشك النهار أن يلوح • وقلبى يكاد يتفطر ألما لقدميها اللتين أتعبتهما من أجلى كل هـذا التعب • وأخيرا واتتنى فكرة وهي أن أخرج لها بنفسى وأقترب من نافذتها وأشكر لها كل هذا الفضل ، وهذا أسلم شيء ، ولا سيما أن الناس جميعا نيام وليس من مستيقظ فى الوجود الا أنا وهى ••

وفتحت باب مسكنى وخرجت • وكان أخشى ما أخشاه أن تذهب بها الظنون مذاهب ليست من خلقى فتستاء وتنصرف قبل أن أطلعها على السر فى خروجى اليها الآن • واقترابى من نافذتها فى هذه اللحظة بالذات • بيد أن شيئا من هذا لم يتطرق اليها • لأنها ظلت فى مكانها لم تغادره • فحمدت الله وكدت أسجد له شاكرا وممتنا ••• واقتربت خطوة من نافذتها ولمعت عيناى •• واقتربت خطوة أخرى فاذا بعينى تجحظ جحوظا غريبا ••• ثم اقتربت خطوة ثالثة حتى دانيت النافذة ؟ ووقفت أمامها أرقب بعينى رأس سلة كبيرة من الثوم معلقة فى نافذة المطبخ • وهى التى ظننتها حبيبة القلب التى ظللت طوال الليل أتغزل فيها وفى شعرها المتموج الذى يصب عليه القمر ضحكاته فى الليل • والذى كان هو الطين الأسود العالق برءوس الثوم • وفى وجهها الذى كان يشع نورا فى عينى وما كنت أحسبه قشر الثوم الابيض الناصع البياض • ثم فى قميصها الهفهاف اللامع الذى كان هو السلة اللعينة التى تحمل الثوم نفسه •

ونظرت اليه مشدوها تعقد الدهشة لسانى وتكتنف الآلام وجهى • فنظر الى وقال ضاحكا :

ـ أما أنا فلم أحزن ، وانما شعرت بسعادة بالغة لأننى سوف ألتقى بها يوما وسوف أقص عليها هذا الذى حدث • وسوف تضحك كثيرا وغاية مايتمناه العاشق هو أن يضحك الحبيب •

وكنا قد بلغنا المحطة • وكان القطار قد دوى صفيره ، فمددت يدى لأودعه فاذا بأنامله ترتعش فى يدى ارتعاشا عنيفا فقلت له :

ـ هل أنت مريض !؟

ـ لا أبدا • فقط شوية أنفلونزا •

تم الكتاب

فهرس

مطابع الدار القومية للطباعة والنشر



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ }



العدد ٤٨ الثمن ١٣ قرش